العودة إلى بغداد

Return to Baghdad

Terug naar Bagdad

يوميات هولندية
تزور محل ولادتها

◂ بقلم : كارين سوارتس

◂◂ ترجمة ومراجعة : د. صلاح عبد الرزاق



العودة إلى بغداد

Return to Baghdad

Terug naar Bagdad

Return To Baghdad
Terug naar Bagdad
العـودة الـى بغـــداد

العودة إلى بغداد
Terug naar Bagdad
Return to Baghdad



يوميات هولندية تزور محل ولادتها

٧-١٤/١١/٢٠١٢

بقلم كارين سوارتس

ترجمة ومراجعة د. صلاح عبد الرزاق

الفهرست

توطئة

قصة هذا الكتاب تعود إلى إصداري كتاب (يوميات بغداد) وهو عبارة عن مذكرات يومية كتبتها السيدة يوديت سوارتس وهي جدة صاحبة هذا الكتاب. وقررت في وقتها دعوة السيدة كارين سوارتس وأختها إنكيبورغ، وكلاهما ولدتا في بغداد في بداية الستينيات من القرن الماضي. وتم ترتيب إجراءات سفرهما إلى بغداد لحضور حفل توقيع كتاب (يوميات بغداد) الذي أقيم في المركز الثقافي البغدادي في شارع المتنبي.

أعددنا لهما جدولاً بأماكن ومواعيد زيارة معالم في بغداد وخاصة التراثية والآثارية والأسواق التجارية ، إضافة إلى المستشفى الذي ولدت فيه وكذلك نادي العلوية الذي كان يأخذها والدها إليه للسباحة صباح كل يوم.

وفي يوم الحفل حضرتا وتحدثتا أمام الجمهور البغدادي عن مشاعرهما عندما وطئت أقدامهما أرض العاصمة العراقية بعد فراق دام خمسين عاماً. فقد غادرت الأسرة بغداد في كانون الثاني ١٩٦٣ ، وعادا إليها لأول مرة عام ٢٠١٢ . ولم يصدقا أنهما سيعودان يوماً ما إلى محل ولادتهما : بغداد. فقد كان حلماً جميلاً يذكرهما بأيام الطفولة التي بهتت ألوانها بفعل الزمن.

طلبت من كارين أن تحذو حذو جدتها وتكتب مذكراتها بشكل يومي، عسى أن تنافس جدتها ، ويصدر لها كتاب هي الأخرى. وبعد عودتها أخذت ترسل لي مذكراتها فصلاً فصلاً، فأقوم بترجمته كي أعرضه لجمهورنا العراقي.

اتسمت المذكرات بالصراحة والبساطة والوضوح، فهي تصف كل شيء أمامها. ربما تنتبه لأشياء لا ننتبه إليها ، فتلاحظ دقة وصف الأشياء والأشخاص والأماكن والطقس والملابس والطعام والكلمات والسلوك والمواقف. كانت أفكارها تنساب تدريجيا، رغم انتقالها من فكرة إلى أخرى. أترك للقارئ متابعة هذه المذكرات التي كتبتها الهولندية كارين سوارتس والاستمتاع بوصفها لما شاهدته في بغداد من معالم ، والناس الذين التقت بهم.

تضمنت المذكرات عرض وجهة نظرها وتحليلها للأمور والقضايا. وقد حافظت على النص كما هو. ولكنها تناولت في بعض عباراتها أموراً أمنية وعائلية وشخصية ومنزلية

تمثل رأيها الصريح دون ملاحظة مواءمة ذلك مع الثقافة الإسلامية والتقاليد العراقية. كما تناولت أموراً أمنية عن السيطرات والحمايات والحراسات وغيرها .

حاولت قدر الإمكان التخفيف من بعض الفقرات التي تمس حياتي الشخصية والمنزلية، رغم أن فقرات كثيرة بقيت كما هي، لأنني أعرف الطبيعة الهولندية التي تتسم بالبساطة في الحديث والصراحة في التعبير، وعادة بلا مجاملات . ولم أشأ حرمان القارئ في التعرف على وجهة نظرها، ونمط تفكيرها، وحكمها على الظواهر.

وفي سياق حديثها عن بعض المظاهر السلبية في الشوارع والحياة البغدادية ، اضطررت إلى مقارنة ذلك بالحياة الهولندية ، لأنني على معرفة تامة بالمجتمع الهولندي وثقافته وعاداته. لقد أردت أن أعطي صورة واضحة للقارئ عن ذلك المجتمع الذي جاءت منه كارين وحملت نظرته.

كما تركت حديثها عن الموظفين والمرافقين والمصورين الذين رافقوها بدءاً من وصولها مطار بغداد لحين ركوبها الطائرة مغادرة الأراضي العراقية. كما أبقيت على الصور التي التقطتها ، ومنها في منزلي، وهي أمور شخصية عادة، لكن حرصي على النصوص وإيصال المشاهد كما وصفتها، جعلني أنشر الصور المنزلية التي التقطتها بعدستها. ومع أنني طلبت منها عدم نشرها ، لكنني وجدت نفسي أنشرها خدمة لأدب الرحلات وخدمة لبغداد مدينتي. ربما تكون أول مرة يقوم بها مسؤول عراقي بالحديث عن وضعه المنزلي وعائلته أمام الناس بهذا الشكل، فكيف وينشر صوراً لتفاصيل الحياة اليومية وغرف المنزل.

د. صلاح عبد الرزاق
٧ أيار / مايس ٢٠١٣

مقدمة

هذه أجمل رحلة في حياتي أن أزور بغداد للفترة من ٧ - ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢.

في ٢٠١٢/١١/٣ ذهبت مع (إنعام) [1] لزيارة مخيم للاجئين في منطقة سخر افنديل s-Gravendeel في وسط هولندا. سأرافقها يوماً من أيام عملها . كانت تقوم بتنظيم نشاطات للنساء والأطفال في مركز إيواء اللاجئين . هناك التقينا بشقيقتها (إكرام) مرة أخرى.

في الليلة الماضية كنت قد تلقيت مكالمة من إنعام قالت لي فيها : لدي شيء أريد التحدث به معك. اعتقدت في الوهلة الأولى أنها ستحدثني عن أحد الأطفال اللاجئين. لقد فرحت كأنني سأذهب إلى حفلة عرس.



(١) إنعام الجزائري سيدة عراقية أصلها من مدينة النجف الأشرف، جدها المرجع عبد الكريم الجزائري. تقيم في هولندا منذ أواسط التسعينيات. بعد انتفاضة الشعب العراقي في شعبان / آذار ١٩٩١ لجأت من زوجها وأولادها إلى المملكة العربية السعودية حيث تم إسكانهم في مخيم (رفحا). ثم حصلت على اللجوء السياسي في هولندا. انشغلت بالنشاطات الاجتماعية المتنوعة ومنها تنظيم النشاطات للنساء اللاجئات.

الحلم يتحقق

في اليوم التالي وأثناء تناول القهوة مع عدد من النساء سألتني إنعام: هل تتذكرين قبل سنوات كتاب مذكرات جدتك السيدة سوارتس ، والذي أعرتني إياه لعرضه في أحد معارض مدينة دوردرخت Dordrecht . أجبتها: نعم ولكن مضى على ذلك سنوات طويلة. أخبرتني إنعام بأن الرجل، الدكتور صلاح عبد الرزاق، الذي استعار الكتاب قد قام باستنساخه، ثم سرعان ما عاد إلى العراق، وهو اليوم يشغل منصب محافظ بغداد، قد دعاك لزيارة العراق لغرض الحديث في معرض عن الكتاب إياه. نظرت لإنعام بحيرة، لم أتمكن من التفوه بكلمة ، ثم بكيت من الصدمة والفرحة. وأخيرا سيتحقق الحلم الذي راودنا منذ سنوات . بقيت طوال ذلك اليوم أسأل إنعام : هل صحيح أنني دعيت إلى زيارة العراق؟ لا يمكنني أن أصدق ذلك. وهل يمكن أن يرافقني أحد آخر إلى العراق إضافة إلى إنعام؟ لقد كان إبني ساندر Sander يرغب كثيراً في مرافقتي لمشاهدة المكان الذي ولدت فيه، والمكان الذي عاش وعمل فيه جده ، ولكنني طلبت من أختي الكبرى إنكيبورغ Ingeborg أن تأتي معي. لقد أحببت أن أبقى معها .

لقد كان يوماً مليئاً بالمشاعر المختلطة بالسرور والترقب، والذي انتهى بوجبة طعام أعدتها إكرام خصيصاً لي.



في البيت كان رد الفعل حماسياً جداً . في الدائرة التي أعمل فيها حصلت فوراً على موافقة الحصول على إجازة . لقد وجد زملائي في العمل أنها حالة فريدة جداً . كما أعتبر مسؤولي أن جميل جداً أن أسافر إلى العراق.

بعد إكمال الإستعدادات المطلوبة، بدأت بالبحث عن الصور القديمة والوثائق التي تعود للماضي. وقامت إنعام وزوجها فارس [1] بإجراءات توثيق سفرنا ، حيث سيكون يوم ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر بداية لمغامرة كبيرة...... لقد أصبح الحلم حقيقة !

(١) هو فارس ابن الفنان العراقي خليل شوقي الذي يقيم مع أبنائه وبناته في هولندا.

Return To Baghdad
Terug naar Bagdad
العـودة الــى بغـــداد

الفصل الأول

الأربعاء ٧ تشرين الثاني ٢٠١٢

إنه أمر بعيد، أنا وإنعام وإنكيبورغ نذهب اليوم إلى بغداد. يجب أن نكون في الساعة الخامسة صباحاً في مطار سخيبول Schiphol في أمستردام. لم أنم جيداً ، كنت أخاف أن أستغرق في النوم أو أتأخر. قمت بضبط المنبه على الساعة الثالثة فجراً ، وعند الرابعة كنا في طريقنا إلى المطار.

لقد كنت في الأيام الماضية عصبية جداً ، ليست لدي فكرة عما أنتظره. سنذهب إلى بغداد حيث ولدنا أنا وإنكيبورغ ، ونزور الأماكن التي قضينا فيها سنواتنا الأولى من طفولتنا ، وسنشاهدها الآن بكل وعي. للأسف لم يكن والدي ووالدتي معنا اليوم ليروا هذه اللحظات.

في يوم الجمعة ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر سيتم عرض كتاب مذكرات جدتي ، كما سيتم عرض مجموعة مقتنيات عراقية سبق أن اشتراها والديَّ وجدتي من العراق ، تعرض أمام الجمهور . إنه شرف كبير وخاص لعائلتنا ، والذي يصادف مرور عشرين عاماً على وفاة ابني يوري Youri. لا توجد صدفة ، لكنها أقرب للرمزية.

في المطـــار

كان رينيه Rene ، و أولادي ، ساندر Sander ، ليزان Lisanne و كيليان Kylian[1] برفقتي إلى المطار. وكانت إنكيبورغ وأولادها خيرت Geert ، كيم Kim وأهرن Ahren [2] قد جاءوا معاً فالتقينا جميعاً في المطار. وكانت هناك مفاجأة أن رأيت فريد Fred يلوّح بيده قادماً لوداعنا في المطار. لقد ولد فريد أيضاً في بغداد ، ووجد أنه أمر رائع أن نذهب إلى العراق.

---

(١) رينيه هو صديق كارين ، عمره ٥٤ عاماً. ساندر الإبن الأكبر لكارين ، عمره ٢٢ عاماً. ليزان ابنة كارين عمرها ١٨ عاماً ، وكيليان هو الإبن الأصغر لكارين وعمره ١٥ عاماً.

(٢) خيرت هو صديق إنكيبورغ وعمره ٤٠ عاماً . كيم هي الإبنة الكبرى لإنكيبورغ وعمرها ٣٠ عاماً. وميلودي هي الإبنة الصغرى لإنكيبورغ وعمرها ٢٨ عاماً. وأهرين هو الإبن الأصغر لإنكيبورغ وعمره ٢٤ عاماً. أما فريد فهو هو ابن أحد أصدقاء والدينا الذين التقوا بهم في بغداد. وقد ولد فريد في بغداد مثلنا ، وعمره ٥١ عاماً. إننا نسمي والد فريد باسم العم هينك Henk.. وهو الوحيد الباقي على قيد الحياة من تلك الفترة، وعمره ٨٥ عاماً. وأخت فريد هي السيدة هيدويغ Hedwig. وهي صديقتي منذ ٣٧ عاماً، وعمرها ٥٣ عاماً.

بعد أن وصل فارس وإنعام ، ذهبنا جميعاً خارج صالة المطار لتصوير مشهد مغادرتنا هولندا ، لأنه ممنوع التصوير في الداخل. إذ قرر فارس وهو مخرج تلفزيوني أن ينتج فلماً عن رحلتنا .كنا نضحك أمام الكاميرا وسط علامات التعجب للمسافرين الآخرين، ثم توجهنا جميعاً إلى الداخل مرة أخرى. قررنا تسليم الأمتعة أولاً ثم نتفرغ للوداع بارتياح.

ولأننا كنا مسافرين على درجة رجال الأعمال في الطائرة ، فلم نكن مضطرين للوقوف في الصف ، بل أكملنا إجراءاتنا في مكتب مجاور مخصص، وسط نظرات بقية المسافرين الذين ، على ما يبدو، وجدوا أننا غير لائقين للسفر في درجة رجال الأعمال. وكنت أضحك عندما أرى ذلك في وجوههم.

كان الوداع سريعاً، وكان ذلك جيداً بالنسبة لي لأنني قد أنفجر بالبكاء تأثراً . قامت ميلودي Melody مع ليزان بإعداد جملة وداع على اللوحة ، لكن للأسف فقدناها ولم نصوره.

بعد الوداع توجهنا إلى صالة رجال الأعمال Business Class Lounge في المطار. إذ كان بإمكاننا الاستفادة من خدمات الصالة لأن تذاكرنا من درجة رجال الأعمال. وكان بإمكاننا تناول وجبة طعام قبل أن نطير على متن الخطوط الجوية النمساوية. لقد كان إفطاراً لذيذاً، وشربنا أيضاً، فسادني شعور (بالرفاهية). شعور جميل أن يجربه الإنسان مرة واحدة.

في الطائرة

بعد ذلك توجهنا بسرعة إلى بوابة الدخول إلى الطائرة ، ثم يبدأ السفر . على متن طائرة من نوع فوكر ١٠٠ ١٠٠ Fokker تلاحظ بسرعة أنك راكب في درجة رجال الأعمال . إذ تجري معاملتك بشكل يختلف : ليس طعاماً معلباً في كيس بلاستك ، بل يتم الاهتمام بك بشكل آخر. إذ تقدم لك صينية مع أدوات معدنية (سكين ، ملعقة وشوكة) ، وليس أدوات بلاستك. وليس قدحاً بلاستيكياً بل تقدم لك أنواع من الشراب تختار أحدها بنفسك. إذن بداية جيدة للسفر، لكننا أنا وإنكيبورغ لم نستطع تناول كل ما يقدم لنا .

فقد كانت إنكيبورغ لا تتناول سوى الخبز الأبيض. نأمل أن ينتهي ذلك بسرعة.
عند الساعة التاسعة صباحاً سنهبط في مطار فيينا . لم يكن هناك وقت للتوقف والذهاب إلى صالة رجال الأعمال ، بل توجهنا مباشرة إلى بوابة المغادرة. هناك تم تدقيق جوازات السفر وسمة الدخول (الفيزا) لأننا سنغادر أوربا فيجب أن يتم تدقيق كل شيء. كان هناك إزدحام وركاب كثيرون متوجهون إلى بغداد. ولأننا من ركاب رجال الأعمال فقد اجتزنا البوابة أولاً، ولم نكن بحاجة إلى الانتظار .



في مطار فينا أثناء توقفنا في الطريق إلى بغداد



أخذوا محلاتهم وجلسوا في مقاعدهم. يجد المرء صعوبة عندما يقال له: سيدي هذا الحقيبة ليست متاع يد فيجب إعادتها إلى البوابة لتشحن ضمن الأمتعة والحقائب. بعد نصف ساعة تأخير أقلعت الطائرة نحو بغداد. كان اسم مساعد الطيار شوارزنيجر Schwarzenegger،[1] إذن لا داعي للقلق، كل شيء يسير بشكل جيد.

كان بعض المسافرين معنا هم مجموعة من الأطباء الألمان الذاهبين إلى بغداد بدعوة من وزارة الصحة العراقية. سألونا متعجبين : ماذا تفعلون في بغداد؟ ماذا لو حدثتهم بقصتي. على أية حال لقد جذبنا انتباههم. وكان الجميع سكراناً ، وهذا ما تلاحظه، إذ كانوا يثيرون الضوضاء بصخبهم.

كان الجو جميلاً، والرحلة إلى بغداد تستغرق قرابة أربع ساعات. تم تقديم قائمة الطعام لاختيار ما نرغب به. أخترنا أنا وإنكيبورغ صحن دجاج ، واختارت إنعام طبق روبيان. أخفيت قائمة الطعام في حقيبة يدي ، حيث أردت الاحتفاظ بها كذكرى عن هذه الرحلة. بينما كنا بانتظار وصول الطعام قامت إنعام بتصويرنا ونحن نكتب مذكراتنا. الساعة الآن الحادية عشرة وعشر دقائق. سنصل حسب الوقت ، حيث يكون الوقت في بغداد أكثر بساعتين. كان الطعام شهياً أيضاً، ولما كانت إنكيبورغ لا تستطيع تناوله طلبت منها قطعة الحلوى .



لحد الآن يستمر السفر إلى بغداد على شكل احتفال

(١) آرنولد شوارزنيجر (١٩٤٧) ممثل أمريكي من أصل نمساوي، كان لاعب كمال أجسام. مشهور بأفلام الحركة والقوة . شغل منصب حاكم لولاية كاليفورنيا.

ولما كنا منفتحين مع الركاب وكذلك طاقم الطائرة، فقد وجدوا فينا سيدتين اجتماعيتين. وكنت غليظة عندما طلبت من المضيفة قطعة حلوى أخرى، فأجابت نعم يا وحش الحلويات ، وكذلك حصلت على قطعة ثالثة.

الساعة الآن الرابعة والربع عصراً، ونحن نهبط في مطار بغداد. أثناء الهبوط التقطنا بعض الصور لبغداد من الجو . إنها تبدو جيدة جداً خاصة عندما تشاهد نهر دجلة يمتد في وسطها.



في مطار بغداد

بعد هبوط الطائرة تم استقبالنا من باب الطائرة، حيث وقف رجل يحمل لوحة مكتوب عليها أسماؤنا . سرعان ما تم اصطحابنا مباشرة عبر سلم جانبي إلى أرض المطار، ثم ركبنا سيارات خاصة أوصلتنا إلى قاعة كبار الضيوف VIP-Terminal كان الرجلان اللذان استقبلانا يبدو عليهما الصرامة ، وأعتقد أن في عينيهما نظرات آمرة: يجب أن نتحرك بسرعة.

في قاعة انتظار كبار الضيوف تم استقبالنا من قبل السيدة جنان، زوجة المحافظ، التي قدمت لنا باقات من الورد ، وكان هناك مصور فيلم ومصور فوتوغرافي مشغولان بعملهما لتوثيق هذه اللحظات الجميلة. لقد كان استقبالاً فريداً! وأخيراً وصلت السيدات الثلاث!

دخلنا في صالة الانتظار داخل قاعة كبار الضيوف كان أثاثها أبيض اللون، فتناولنا الشاي والماء. خلال ذلك كان هناك من يهتم باستلام حقائبنا وإكمال إجراءات الكمارك ، ثم وصلت إلينا ونحن جالسات. كما تم ختم جوازات السفر بختم جميل لسمة الدخول. وسرعان ما قدمت جنان لنا الطبعة العربية من يوميات جدتي. لقد كانت استثنائية. حيث وجدت صورة جدتي على الغلاف وهي مشغولة بكتابة مذكراتها .



لم أتمالك نفسي من البكاء . لم يدر في خلدي أبداً أن أعود إلى العراق يوماً ما، ولكننا نجلس اليوم في بغداد، لقد تحقق حلم!





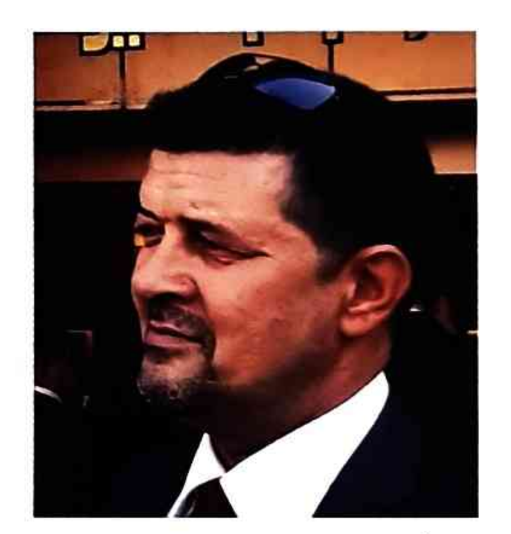
نجلس معاً في صالة انتظار كبار الضيوف



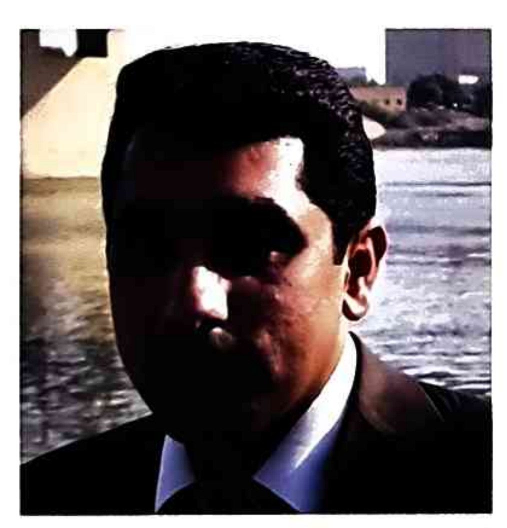
إستلامي النسخة العربية من مذكرات جدتي في المطار

لقد اعتنت جنان بكل ما يشعرنا بالترحيب. لقد كان شيئاً فريداً أن تصل إلى العراق وتتحدث بالهولندية بشكل عادي . لم تمر سوى دقائق حتى تم إنجاز كل شيء، مع أن المطار كان مزدحماً لوجود أعداد كبيرة من المسافرين العائدين من أداء فريضة الحج في مكة المكرمة. وعند الساعة الخامسة والنصف تم نقل الحقائب إلى السيارات، وتحركنا من بوابة قاعة كبار الضيوف إلى الخارج في طابور طويل من السيارات التي كانت بانتظارنا .

جلست أنا وإنكيبورغ في سيارة مع مرافقينا محمد وأبو جعفر .لقد تم تكليفهم كمرشدين لنا خلال هذا الأسبوع. يتكلم محمد الإنكليزية ، وسرعان ما تبادلنا الأحاديث بمرح.



■ أبو جعفر



■ محمد جلال

في الطريق إلى المدينة كانت الشوارع تشهد احتفالاً ومزينة بالأعلام البيضاء التي يحملها الناس ويلوحون بها . شرح محمد لنا السبب فقال إنها إحتفال بعودة الحجاج من مكة المكرمة حيث يستقبلهم أهلهم وأصدقاؤهم .

كانت السيارة، التي نجلس فيها، تسير بسرعة بين الازدحام المروري. كانت تسير أمامنا سيارة عسكرية (بيك أب) حيث يجلس في الخلف جندي يمسك بسلاحه. في كل مكان تشاهد جنوداً وشرطة، حيث ينتشرون طوال الطريق، قبل وبعد نقاط السيطرة.

في منزل المحافظ

سنقيم هذا الأسبوع في منزل السيد المحافظ . إننا أول ضيوف أجانب نمكث في منزله، إنه شرف كبير لنا .

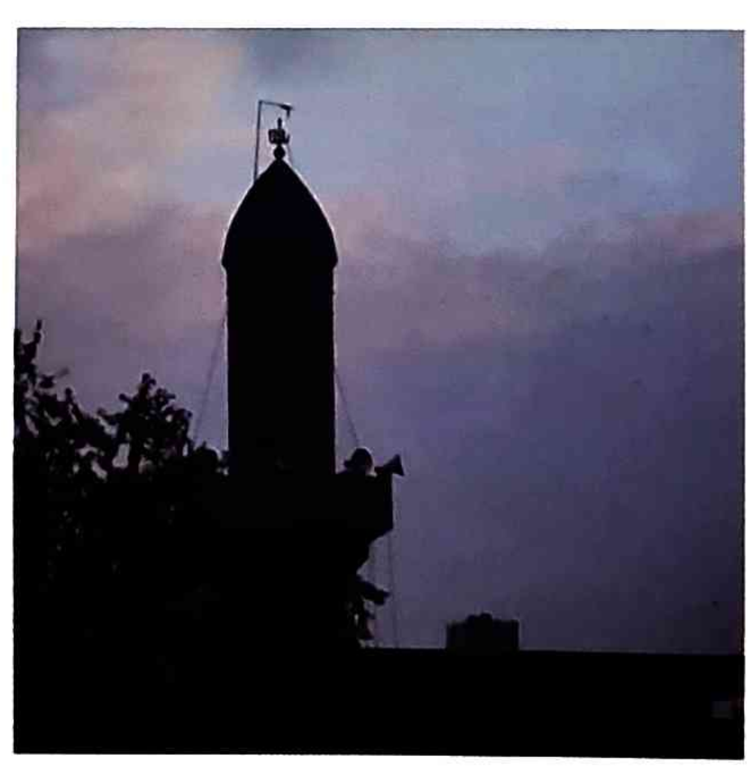
يخضع المنزل للحماية الدائمة ، فالمكان محمي بشكل جيد . بعد وصولنا إلى المنزل بقليل وصل السيد المحافظ. قبل ذلك قامت السيدة عقيلته باصطحابنا في المنزل حيث شاهدنا غرفة النوم التي سنقضي فيها أسبوعاً . سننام أنا وإنكيبورغ معاً على سرير كبير ، بينما تنام إنعام في غرفة أخرى. كان أمام الغرفة صالة وجوارها مطبخ صغير. قبل تناول العشاء جلبت السيدة جنان ملابس عراقية طويلة وفضفاضة. كانت مريحة وسرعان ما فكرت بشراء ملابس مشابهة من السوق. تناولنا العشاء بكل سعادة .
إنني أشعر كأنني في بيتي هنا في بغداد مع السيد المحافظ وعقيلته ، وكنا نتبادل الأحاديث كما لو نعرف بعضنا منذ زمن طويل. أمامنا أسبوع حافل وبرنامج غني بالفقرات والزيارات، كما سيقوم المحافظ باستقبالنا في مكتبه. حان الوقت كي ننام لأنه هناك أيام حافلة تنتظرنا .

الفصل الثاني

الخميس ٨ تشرين الثاني / نوفمبر

استيقظت هذا الصباح مبكرة . عند الفجر في الساعة الخامسة ارتفع صوت الأذان لصلاة الصبح من المسجد القريب من المنزل.[1] إذ بإمكاننا رؤية المسجد من شباك الغرفة المطل على البالكون. لقد كان الصوت شديداً حتى راودتني فكرة أن إمام المسجد يقف قرب سريري. في الجوار سمعت صوتاً جميلاً لديك ينذر ببدء الصباح. تشعر بالسعادة أنك لست مضطراً للوقوف. كما كنا نسمع زقزقة العصافير الجميلة وهي ترسل أغانيها في الهواء.

أعرف أنه مع ضوء الصباح تكون أول صلاة يفتتح بها اليوم، ولكنني لم أضع ذلك بحسباني ، ولذلك فوجئت بصوت المؤذن، ربما غباء مني. أما في بقية أيام الأسبوع فقد اعتدت على ذلك.



حسينية الجوادين في منطقة الشالجية

---

(١) المقصود هي (حسينية الجوادين) التي تقع في حي الشالجية قرب الجسر الموصل بين العطيفية والأعظمية.

مع ضوء النهار كان باستطاعتنا أنا وإنكيبورغ أن نشاهد الجوار الخلفي للمنزل. الناس هنا يعيشون في مساكن متواضعة.

في الليلة الماضية تحدثنا مع المحافظ وعقيلته حول بغداد وسكانها وما عانوه خلال الحروب التي مرت بهم، وأهمية إعادة بنائها. حدثنا السيد المحافظ بأنه مشغول حالياً ببناء مشروع سكني للفقراء والمحتاجين في بغداد. سيتم توزيع منازل عليهم هذا الأسبوع، وسيتم تسليم الساكنين الأوائل مفاتيح الدور الجديدة التي صارت لهم، جميل جداً.[1]

على مائدة الفطور، جلبت عقيلة السيد المحافظ أكواب شاي جميلة حيث وضعتها على الطاولة. وكان بودي أن أقوم بصب الشاي وتقديمه لهم، لكن للأسف انكسر أحد الأكواب وأنا أريق الشاي فيه. للأسف كان خطأً مني، ويحدث ذلك معي كثيراً، أن أرتكب خطأً ما!



عندما كانت الأكواب كلها سليمة

(١) الحديث هو عن مشروع (الإحسان السكني) في ناحية الوحدة في قضاء المدائن، جنوب شرق بغداد. إذ تم توزيع سندات ومفاتيح ٢٥٤ منزلاً على المستحقين. وكانت فرحتهم غامرة، ومشاعرهم مختلطة بين الفرح والدموع والزغاريد.

زيارة المتحف الوطني العراقي

بعد سقوط صدام حسين تعرض المتحف إلى السلب سواء من الناس المحليين أو من الجنود الأمريكان. كان هناك الكثير الكثير من مقتنيات المتحف التي تعرضت للضرر أو السرقة. غير مفهوم! كيف يمكن لشعب أن يتعامل مع تاريخه بهذه الصورة؟ ولماذا سكت الأمريكان إن لم يكونوا مشاركين في تدمير هذا التراث بشكل مخجل!

تم تأهيل المتحف من جديد ، وتأثيثه ، وتم استعادة الكثير من القطع المسروقة من الخارج. وحتى من هولندا تم إعادة قطع مسروقة أيضاً. إن المتحف يمنحك انطباعاً مؤثراً ، كما يثير الانتباه كثيراً. أثناء جولتنا في قاعات المتحف، ولكثرة أسئلتنا واستفساراتنا عن القطع المعروضة وتاريخها واستعمالها، فقد تأخرنا كثيراً . وكان معنا مجموعة سياح قادمين من إيستلاند Estland[1] لكنهم أنهوا جولتهم قبلنا.



أمام تمثال الملك سنطروق

كل ما قمنا به تم تسجيله في فلم وصور فوتوغرافية. لقد جلب ذلك انتباه بقية زوار المتحف، إننا نجلب انتباه الآخرين! لقد كانت إنعام حزينة جداً للطريقة التي تم التعامل بها مع أقدم حضارة في وادي الرافدين (Mesopotamia) عندما تعرضت آثارها إلى التدمير. تأثرت بحزن إنعام التي دونت سبب حزنها في سجل الضيوف للمتحف. كتبت إنكيبورغ عنا في السجل. لدي رغبة شديدة برؤية هذا المتحف مرة أخرى في المستقبل. لا أحد يعرف متى يحدث ذلك.

(١) إيستلاند هو الإسم الجديد لدولة أستونيا كما يسميها الألمان والهولنديون والسويديون والدنماركيون. تقع بجوار الدول الاسكندنافية. كانت ضمن الاتحاد السوفياتي السابق ثم استقلت في بداية التسعينيات من القرن العشرين.

كتبت كارين وإنكيبورغ الكلمة الآتية في سجل المتحف العراقي:[١]

((الخميس ٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٢

قمنا بجولة بديعة في المتحف. من البديع أن نرى آثاراً جميلة تم حفظها وترميمها تعود للماضي. تركت فينا انطباعاً عميقاً. نأمل أن تحفظ جميع هذه الأشياء للأجيال القادمة، كي يعرفوا ماضيهم.

شكراً لهذه الجولة البديعة.

كارين وإنكيبورغ سوارتس))

في معرض بغداد الدولي

بعد زيارة المتحف توجهنا لزيارة معرض بغداد الدولي الذي فتح أبوابه في الأول من تشرين الثاني / نوفمبر ويستمر لمدة عشرة أيام. هنا تعرض آخر المنتجات الصناعية والتجارية والزراعية والآلات والعدد والسيارات والمكائن بأنواعها. هناك العديد من البلدان والشركات الأجنبية المشاركة في المعرض. زرنا جناح محافظة بغداد حيث شاهدنا صوراً ونماذج مجسمة لمشاريع متنوعة. يستطيع الشعب مشاهدة المشاريع المنفذة أو التي في طور الإنشاء أو التي ستنفذ. كان يرافقنا مرشد يشرح لنا المعروضات، لقد كان لطيفاً جداً. كما أعطونا دليلاً للمعرض يشرح للزائر ما يوجد فيه. كما حصلنا على حقيبة جميلة تحتوي هدايا وفولدرات وصوراً. دونت إنكيبورغ كلمة في سجل الزوار.

(١) أرسلت إلى المتحف لجلب نسخة من الكلمة التي كتبناها في سجل المتحف.



أمام جناح محافظة بغداد كان هناك جوق موسيقي يعزف أناشيد عسكرية تزيد الجو حماساً. وكانت هناك سيدة عراقية تبتسم لنا وهي ترقص أمامنا! الأمر الذي أعجبني أن كثيراً من زوار المعرض كانوا يصورونا بهواتفهم النقالة، إذن نحن شخصيات هامة! أثناء تجوالنا في السيارة ، تشعر أن أمام بغداد طريق طويل لإعادة بنائها . هناك الكثير من المنازل بحاجة إلى ترميم، كما أن الشوارع بحاجة إلى تعبيد وإصلاح. كما تلاحظ في نظرات الناس الغاضبة على توقفهم انتظاراً لمرور موكبنا ، فذلك ليس جيداً لكل شخص.



من الأشياء اللطيفة التي كنا نتبادلها مع مرافقينا هو (درس اللغة). كان محمد يعلمنا كلمات عربية، بينما كنا أنا وإنكيبورغ نعلمه بعض الكلمات الهولندية . كان محمد يكتب كل شيء يتعلمه منا . إنه جميل أن نتبادل الأحاديث. لقد ضحكنا كثيراً مع محمد وأبو جعفر.

في نادي الصيد

بعد زيارة المتحف العراقي ومعرض بغداد ، ذهبنا لتناول الغداء في نادي الصيد الأرستقراطي المخصص للأعضاء فقط. دخلنا (مطعم الباشا) الذي كان إستثنائياً . أكلنا (برياني)، وهي واحدة من الأكلات التي كان والدي يحبها . كما كان هناك أنواع من السلاطات من بينها الحمص بطحينة. جنان طلبت طبق سمك كان يبدو شهياً . إن المطبخ العراقي ليس غريباً عليّ. وتناولنا عصير الليمون مع النعناع ، كان لذيذاً . ولما كان المطعم غالياً فقد قررنا اصطحاب ما بقي من الطعام معنا، لوجبة عشاء لذيذة!



في المنزل تناولنا العشاء مع السيد المحافظ وعقيلته. كان عشاءً لطيفاً، تبادلنا فيه الأحاديث، وأكلنا بلا حرج ، كان شهياً. أثناء تناول الشاي تفرجنا على ألبومات المحافظ وعقيلته تتضمن الصور التي التقطاها أثناء إقامتهما في هولندا عندما كانا في المنفى.

في المنزل توجد أشياء ومقتنيات جلباها معهما من هولندا، من بينها ثلاثة كاشيات بورسلين من إنتاج مدينة ديلفت الشهيرة بإنتاج الصيني الأزرق. كانت الكاشيات مثبتة في الحائط.

كما كان هناك متحف صغير يضم جميع الهدايا التي تسلمها المحافظ من الوفود أو مقدمة من شخصيات حكومية أثناء زياراته للبلدان الأجنبية. كما كانت هناك مجموعة أشياء وأكواب تعود لوالده المتوفى. إضافة إلى مجموعة جميلة من المقتنيات الهولندية. لقد رأيت بأم عيني أشياء رائعة جداً.



تعرفنا أيضاً على أسماء المرافقين، منهم مسؤول الموكب اسمه (عامر) أو كما يسمونه (حاج عامر) لأنه حج إلى مكة المكرمة. والآخر هو المصور (هشام) والمصور الفوتوغرافي (مازن).

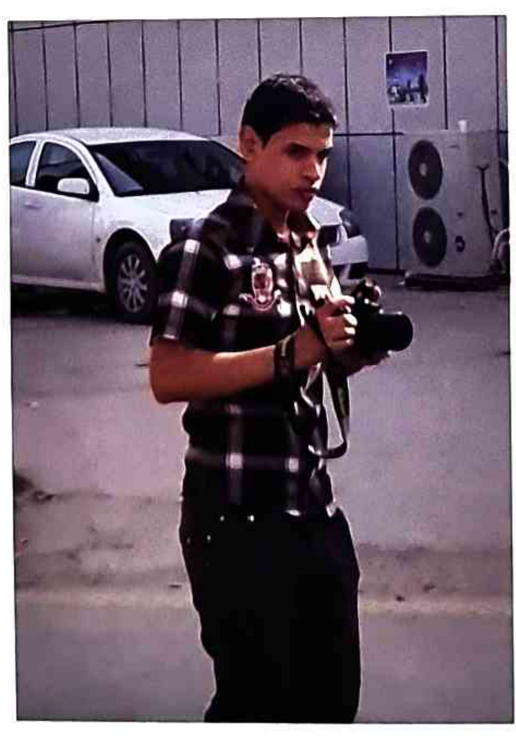
عند الساعة الحادية عشرة والنصف حان وقت النوم. ففي اليوم التالي ينتظرنا يوم مثير: عرض كتاب مذكرات جدتي، ومعرض للمقتنيات العراقية ، وفلم عن عائلتنا .



■ هشام



■ عامر



■ مازن

الفصل الثالث

الجمعة ٩ تشرين ٢ / نوفمبر ٢٠١٢

تمر اليوم الذكرى العشرون لرحيل ولدي (يوري). للأسف لن تكون أمك في المقبرة مثل كل عام. ماما تفتقدك يا يوري، وستبقى في ذهني ومعي طوال اليوم.

أنا وخالتك إنكيبورغ وإنعام في بغداد حيث سنتوجه إلى المركز الثقافي البغدادي للإحتفال بصدور الطبعة العربية المترجمة، من قبل الدكتور صلاح. لمذكرات جدة أمك. وسنشاهد فلماً قصيراً عن عائلتنا . كما سيتم عرض المقتنيات العراقية التي جلبناها معنا أنا وإنكيبورغ.

في الساعة العاشرة صباحاً سيبدأ الاحتفال الذي شهد ازدحاماً ملحوظاً. وحظي باهتمام وسائل الإعلام. وينتظر منا أن نتحدث أمام الجمهور . أشعر باضطراب قد بدأ معي منذ اللحظة.

كنت مشتاقة لمعرفة كيف سيكون الفلم والمعرض، وكيف سيتم استقبال يوميات جدتي هنا في بغداد.

لحد الآن لم يخطر على بالي أن أكون في بلدة غريبة. رغم أن بغداد ما زالت تعاني من النفايات والأنقاض لكن من الواضح أن هناك الكثير ليجري عمله من أجل إعادة إعمار المدينة التي تبدو مدينة محببة، وأشعر فيها أنني في بيتي.

تناولنا الفطور اليوم مع السيدة نضال، أخت السيد المحافظ. والتي ستأتي معنا لحضور الاحتفال. في الليلة الماضية تناولنا الحساء الذي أعدته نضال. كان لذيذاً جداً حيث توجد فيه كرات من الرز محشوة باللحم المفروم (الكبة). يبدو الحساء لذيذاً في الفطور أيضاً. لن أتناول حساء في الفطور في منزلي.[1] ولكن يبدو هنا شهياً. كل ما نأكله هنا يبدو لذيذاً جداً . وأخشى أن لا أتمالك نفسي تجاه الأكل العراقي، وأن وزني سيزداد بشكل ملحوظ.

---

(١) اعتاد الهولنديون على تناول الحساء مع الوجبات الساخنة أي الغداء والعشاء. أما في الصباح فيتناولون منتجات الألبان. وعجينة الفستق السوداني المطحون والعسل وغيرها.

اشترت لنا السيدة نضال فساتين عربية ، حيث قدمت لإنكيبورغ فستاناً أحمر، وأنا أخذت برتقالياً. إنه مريح أن نرتديه ليلاً . أجد ذلك لطفاً من السيدة نضال أن تجلب لنا فساتين. تحدثت نضال بأنها لم تر أخاها عشرين عاماً حتى عودته إلى العراق عام ٢٠٠٣ ، وأنها افتقدته كثيراً خلال تلك السنين. وأنا أقدر على تصور ذلك. إن نضال محببة واجتماعية ، سيدة ترعى الآخر. لقد تركت نضال في انطباعاً حديثاً جداً.

نحو شارع المتنبي

عند التاسعة صباحاً ركبنا السيارات باتجاه المركز الثقافي البغدادي. خلال الطريق ، مثل يوم أمس، يوجد أطفال وناس يتجولون بين السيارات يحملون أشياء يريدون بيعها على السواق، مثلاً يحمل أحدهم طبقاً فيه خبز (صميط).



تبدو الحياة في شوارع بغداد أفضل حالاً من أمس ، لأنه كان لدي شعور بالأمس (بأننا موجودون هنا حقاً) ، وقد انتهى ذلك حيث أرى الحياة بعين أقرب.

إضافة إلى الجنود يوجد في الشوارع رجال الشرطة . كما تنتشر (البسطيات) التي تبيع الخضروات والفواكه ومأكولات أخرى وعلب العصير وزجاجات الماء. الجو هنا دافئ لا يتجاوز ٣٠ درجة مئوية، وعليه فقد يحتاج المرء إلى عصير أو ماء.[١]



ونحن في السيارة يقدم لنا أبو جعفر ومحمد زجاجات الماء بشكل متواصل، وكذلك علب العصير والحلوى مثل (كيت كات) ، لقد خمنوا أنني أحب الحلوى.

الطريق إلى المركز الثقافي البغدادي يمر بشارع المتنبي، الذي سمي على اسم شاعر عربي شهير. هنا تجد جميع المحلات تبيع الكتب، وفي يوم الجمعة يكون سوق الكتب. ما أثار انتباهي أنني لم أجد نساء، بل يبدو رواد الشارع من الرجال الذين يتجولون بين الكتب.[٢]

---

(١) في هولندا تباع أنواع المأكولات في الشوارع ولكن في بسطيات عالية وليس على الأرض. كما توجد أسواق شعبية أسبوعية تبيع كل شيء من القماش والملابس والسمك والخضروات والفواكه والجبن إلى البطاريات وأدوات الدراجات الهوائية. وتوجد سيارات جوالة في المحلات السكنية تبيع الخضروات والألبان والأجبان وغيرها. كما تباع المثلجات والآيس كريم في سيارات خاصة قرب السواحل والأسواق المزدحمة. كما توجد بسطيات على الأرض تفرش عادة لبيع الأشياء المستعملة كالأواني والأدوات المنزلية ولعب الأطفال.
كما يوجد متسولون يعزفون الموسيقى على الأرصفة أو في الأنفاق . وهناك من يبادر إلى مسح زجاج سيارتك عند الإشارات المرورية دون أن تطلب منه . وهي طريقة أخرى للتسول.

(٢) هناك الكثير من النساء المثقفات والإعلاميات وطالبات الجامعة والموظفات من رواد شارع المتنبي . كما يحضر الكثير منهن إلى نشاطات المركز الثقافي البغدادي حيث تقام العديد من الفعاليات يوم الجمعة من قبل الجمعيات والاتحادات ومنظمات المجتمع المدني.

يبدو الحي متهالكاً ، وبنايات مهدمة هنا وهناك، ولكن يبدو أن الناس كأنهم لا يرون ذلك، فكل شيء يسير على ما يرام.

المركز الثقافي البغدادي هو بناية قديمة تم تأهيلها وتحويلها إلى مركز يستطيع الناس أن يلتقوا فيه ويجتمعوا ، ويتمتعوا بالموسيقى ، وسماع الشعر، ومشاهدة الفن، والكتب ، أو يجلسوا يتحدثون مع بعضهم البعض سواء في الكافتيريا أو على ضفة النهر أو يقفون في الساحة الواسعة أو في الأروقة والقاعات.[1]





(١) تعود بناية المحاكم المدنية إلى القرن التاسع عشر حيث بناها العثمانيون عام ١٨٧٠ م . في عام ٢٠١٠ قمنا بتأهيلها وتأثيثها لتكون مركزاً ثقافياً يحتضن كل النشاطات الثقافية والفكرية والفنية ولجميع المنظمات مجاناً. توجد فيه عدة قاعات مثل (قاعة د. علي الوردي) (قاعة د. مصطفى جواد) (قاعة الشاعرة نازك الملائكة) (قاعة النحات جواد سليم) (قاعة النحات محمد غني حكمت) (قاعة المخطوطات) (قاعة المقام العراقي) (مكتبة ميخائيل عواد) . كما يوجد (مسرح سامي عبد الحميد) المدرج الذي يتسع لـ ٢٠٠ كرسي. كما توجد (مكتبة بغداد) تضم قرابة خمسة آلاف كتاب ، وخرائط وصور عن بغداد. كما يوجد أرشيف صور يتجاوز سبعة آلاف صورة قديمة لبغداد وشخصيات بغدادية. أقيمت فيه معارض نوعية مثل (معرض الصابئة) (معرض التركمان) (معرض العائلة المالكة العراقية) (معرض أعياد الميلاد) (معرض ثورة العشرين) (معرض طقوس عاشوراء) وغيرها.

إنها قصة جميلة تحكى. فقد استمع السيد المحافظ إلى أحدهم يعزف على آلة الكمان بجانب نهر دجلة . وسرعان ما وعد العازف بأن يجد فرصته ليعزف موسيقاه أمام الجمهور في المركز الثقافي البغدادي. وقد تحقق الوعد ، إنه مركز ثقافي بديع.

توجد ساحة واسعة في المركز الثقافي حيث يوجد معرض للكتاب على طول الرواق المطل على الباحة. صعدنا إلى الطابق ألأول. تم استقبالنا في غرفة واسعة ، وتم تقديمنا إلى الحاضرين وبعضهم كان أعضاء في مجلس المحافظة ، وكتاباً ومثقفين ومؤرخين وموظفين كبار من أصدقاء المحافظ. إضافة إلى حضور بعض المراسلين والمصورين.

تناولنا قهوة عربية قوية، ثم شاياً وماء. واستمعنا إلى أحاديث الحاضرين. لحسن الحظ كنا نفهم ونتابع ما يقولون بواسطة إنعام التي تترجم كل شيء. لقد كان هؤلاء الناس متحمسين جداً لحضورنا، ومرحبين بنا رغم أنهم لا يعرفوننا . لقد منحنا هؤلاء الناس ترحيباً حاراً جداً.

بعد ذلك قمنا بجولة في المركز، واستمعنا في إحدى القاعات إلى أحد المغنين وهو يغني أشعاراً شعبية. أخبرتنا إنعام بأن أبيات الشعر تتحدث بأنه (الأفضل للروح) وكان هناك جمهور يردد معه بحماسة بالغة ومندمج مع الأغنية.

بعد ذلك زرنا غرفة ذات أثاث قديم تعود إلى كاتب عراقي مشهور (ميخائيل عواد) . وعلمنا بأن أسرته قامت بمنح المركز كل أثاث مكتبه في منزله. والجميل أنه تم الاحتفاظ بالمكتب بالصورة الجيدة. وكان المركز قد اشترى مجموعة كتبه القيمة.

ثم دلفنا إلى قاعة الاحتفال بتقديم كتاب الجدة . كانت هناك خزانة زجاجية وضعت فيها المقتنيات التي جلبناها أنا وإنكيبورغ معنا إلى بغداد . أليس غريباً أن هذه المقتنيات كانت في خزانة منزلنا يوم الإثنين ، واليوم الأربعاء تعرض هنا في بغداد .

لقد سمعنا بأن الناس هنا تعجبوا ، وعدوه نادراً، أن نحتفظ بهكذا أشياء قديمة لحد الآن ، لكنها كانت تحمل لنا ذكريات جميلة عن البلد الذي ولدنا فيه، وأنها تعود إلى زمن عاش وعمل فيه والدانا في بغداد .



ثم عرض فلم عن حياة أبينا وأمنا وجدتنا في العراق. وقام الدكتور صلاح بإعداد سيناريو الفلم بناء على الصور والوثائق التي أرسلناها له عبر الإيميل. كان فصلاً جميلاً يروي تاريخ أسرتنا ، مع تسليط الضوء وجلب اهتمام الناس لعائلتنا ومذكرات الجدة بشكل لا يوصف.

بعد عرض الفلم تحدث السيد المحافظ والسيدة إنعام أمام وسائل الإعلام التي جاءت لتغطية الاحتفالية. وكان كتاب (يوميات بغداد) قد تمت طباعته طبعة أنيقة ، وتم توزيعه على الجمهور والمهتمين. أمام الجمهور تحدث السيد المحافظ عن جدتي ووصفها بأنها امرأة نادرة في وصفها لحياة العراقيين ودقتها في مراقبة الناس والأماكن والأشياء في الشوارع والساحات والطرق وفي الأسواق أو الأمكنة التي زارتها كالمنازل والأندية. كما ذكر قابليتها في حفظ أسماء الأشخاص أو أماكن عملهم وغيرها من التفاصيل. كما روى كيف حصل على كتاب المذكرات من إنعام أثناء وجوده في مدينة (دوردرخت) بهولندا.



أقيم الاحتفال في قاعة (مسرح سامي عبد الحميد) في المركز

كانت جدتي قد وصفت حياتها اليومية في العراق ، سواء الجوانب الإيجابية أو السلبية للمعيشة في بغداد، وحسب وجهة نظرها، وإدراكها للأمور. وأنها كتبت المذكرات لهدف شخصي وليست للنشر. كما تحدث الدكتور صلاح عن المشاهد التي وصفتها جدتي في تلك المرحلة من الزمن في عراق الستينيات، من خلال عيني سيدة قادمة من هولندا .
ومن خلال الكتاب أشار الدكتور صلاح إلى أن والدي كان رجلاً بلا حدود، منفتحاً للجميع بلا قيود اللون أو الأصل أو اللغة. وهذه الصورة فعلاً هي التي أحملها عن والدي من خلال القصص الكثيرة التي سمعتها عنه. بالنسبة لوالدي لا توجد حدود أو مسافات ، بل الجميع متساوٍ في نظره.



أثناء حديث الدكتور صلاح، خرج أحد الحاضرين من القاعة وهو يهمهم. لقد وجد أنه من الغريب أن يجري الاهتمام بمذكرات الجدة، في حين أنه كتب كتاباً عن بغداد لكن لم يهتم أحد به أو يطبعه. إنها صورة الغيورين، أليس كذلك؟

بعد كلمة الدكتور صلاح ، تحدثنا أنا وإنكيبورغ . بدأت الكلام أولاً، وكنت مرعوبة من الحديث أمام كل هذا الجمهور في القاعة. كانت إنعام تترجم ما أقوله، وتملأ ما كنت قد نسيته.

خلال ١٧ عاماً من صداقتي مع إنعام لم تكن تخطر لي مثل هذه المغامرة، كما أنها بعيدة جداً عن حياتي من قبل. إن صداقتنا ومذكرات جدتي قد جمعتنا على طاولة واحدة في المركز الثقافي البغدادي، وأمام جمع غفير من المستمعين. أشكر كل الناس الذين حضروا هذا اليوم. كما ألقت إنكيبورغ كلمة ، تحدثت وملئت أيضاً من قبل إنعام. قامت إنعام بدور جيد في ترجمة ودعم كلمة إنكيبورغ، رغم أنها لم يتعارفا مع بعضهما البعض سوى قبل عدة أيام.

في النهاية أوضحت للجمهور بأنني أجد موقف السفير الهولندي في بغداد غير لائق لأنه لم يحضر لهذا لاحتفال، أو على الأقل لم يبعث أحداً من السفارة. على أية حال إنها مناسبة غير عادية لهولنديين في العراق. يبدو أنهم سألوا كثيراً لكنهم في النهاية لم يحضروا!

من بين الجمهور، صاح أحد الحاضرين بأنه لا داعي للقلق لأننا جميعاً بغداديون في العراق. من الواضح أننا قد استقبلنا بكل ترحيب من قبل الجمهور الذي احتضننا بحرارة. وهذا شيء رائع!

لقد دعا الدكتور صلاح جميع الأجانب الذين أقاموا أو ما زالوا مقيمين في العراق أن يكتبوا مذكراتهم ويتحدثوا بمشاعرهم بكل صدق. إن المذكرات ترسم صوراً جميلة عن العراق، وتشكل مرحلة تاريخية معينة. وإذا كنت متحمساً للإستجابة فقم بتدوين خاطراتك. كانت هناك أسئلة كثيرة جداً ولم يكن بالإمكان متابعتها كلها.

لقد اعتقدنا بأن الحفل قد انتهى لكن رأينا تهافت الجمهور على المنصة التي نجلس فيها من أجل الحصول على توقيعنا : الدكتور صلاح وأنا وإنكيبورغ. واو! ذلك مثير جداً. لقد ارتفعت حمى توقيع نسخ الكتاب حتى أن الناس طلبوا منا كتابة إهداء لهم وبأسمائهم. أردنا الاكتفاء بالتوقيع لكثرة الواقفين حولنا، لكنهم أصروا علينا لتدوين عبارات الإهداء ، ولم نكن نريد تخييب أملهم. وهذا ما لم أتوقعه أبداً !

بعد ذلك جاء دور لقاءات وسائل الإعلام ، والجمهور الذين أرادوا التقاط صور معنا . بل وحتى أحد الأئمة (تقصد المعممين) رغب بالتقاط صورة معنا . وقام رجل آخر بوضع أيدينا بيده. والفكرة تتلخص بأن الديانات المختلفة تقف معاً في جو حميم.

بعد ذلك توجهنا إلى الكافتيريا الموجودة في المركز الثقافي البغدادي حيث تناولنا الشاي والقهوة. أثناء مرورنا في باحة المركز الثقافي رأيت لوحة كبيرة يظهر فيها كتاب جدتي (يوميات بغداد) . من الجميل أن نجد جدتنا تحتل موقعاً ملحوظاً في بغداد !



نعم ، إنها (الخمس عشرة دقيقة من الشهرة) الحقيقية

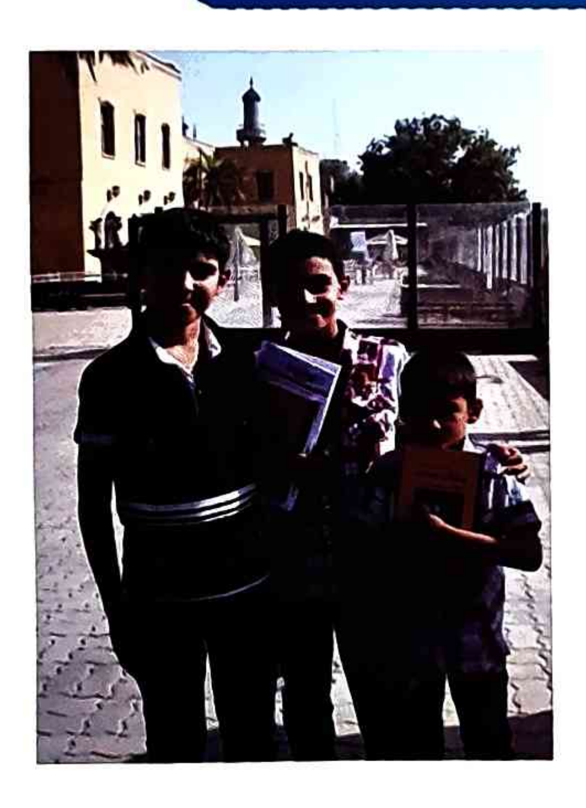
تمثال المتنبي

يقع المركز الثقافي بجانب نهر دجلة ، حيث ينتصب قربه تمثال للشاعر العربي الشهير المتنبي. وقد أخذنا صورة أمامه.

كانت الساحة المقابلة للتمثال مزدحمة بالناس، ومن بينهم ثلاثة أولاد كانوا ينظرون إلينا وهم يحملون نسخاً من كتاب جدتي. تحدث أحدهم فقال: أنا أحبكم (بالانكليزية) ، ما أجملها !

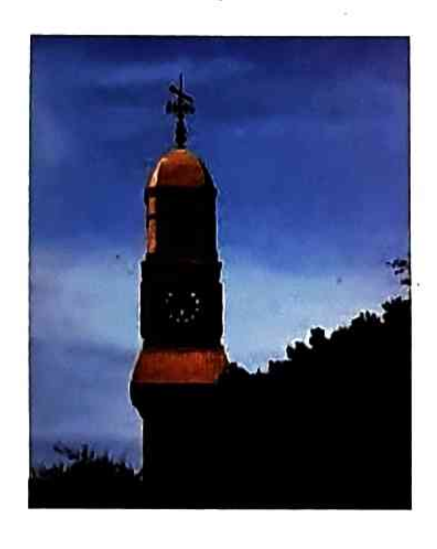


بعد ذلك نزلنا في سلم باتجاه دوبة صغيرة تقع داخل نهر دجلة، حيث تشاهد منظراً جميلاً للنهر. في أسفل السلم كانت هناك صورة للاعب كرة القدم الشهير كريستيانو رونالدو .



زيارة القشلة

بعد المركز الثقافي ، قمنا بزيارة معالم القشلة، حيث توجد ساعة بغداد. تعود هذه الساعة إلى نفس الفترة التني أنشئت فيها ساعة بغ بن Big Ben اللندنية الشهيرة. بعد سنين من التوقف ، أعيد إصلاحها للعمل من جديد، وبفضل السيد المحافظ.[1]



(١) تم نصب ساعة القشلة عام ١٨٧٠ وسط الساحة في مبنى القشلة. وقد طلبت من وزارة السياحة والآثار التعاون معنا لإصلاحها وإعادتها لتدق في سماء بغداد كما كانت طوال أكثر من قرن ونصف. وقد خصصت مبلغ ستين مليون دينار لإصلاح الساعة وترميم البرج من الخارج والداخل ، وتزويدها بالإنارة ليلاً لتبدو ساطعة في المشهد البغدادي.

مرسى العطيفية

يقع مطعم مرسى العطيفية للزوارق في الكرخ ، وبجانب نهر دجلة، فهو وجهتنا القادمة. نذهب لتناول السمك المسكوف، مثل جدتنا . فقد وصفت الجدة مشاركتها في حفلة المسكوف في جزيرة تقع داخل نهر دجلة.[1] الفرق أننا اليوم لسنا في جزيرة، بل في مطعم حديث افتتحه السيد المحافظ منذ وقت قريب. المرسى عبارة عن متنزه كبير يضم عدة مطاعم ومقاهي وحديقة ألعاب للأطفال.

المسكوف عبارة عن سمكة يتم شقها من جهة الظهر، كنا نراقب ذلك عن قرب، ثم يتم نصبها على أعواد مقابل النار حيث تشوى بالحرارة حتى تنضج.



(١) في كتابها (يوميات بغداد) تحدثت السيدة سوارتس عن رحلتها مع ابنها إلى جزيرة (أم الخنازير) ليلاً وتناول السمك المسكوف اللذيذ كما وصفته. راجع صفحة ١١٣ وما بعدها.

وكان هناك فرن كبير (تقصد تنور) يخبز فيه الخبز المغطى بالسمسم والحبة السوداء. يتم لصق العجينة على جدار التنور ، ثم تنزع عنه بعد أن تنضج، ما ألذها !



ندخل في قاعة خاصة داخل المطعم المطل على النهر. هناك شبابيك تظهر مياه النهر العالية. جلسنا نتمتع بهذا المنظر الجميل لنهر دجلة. جلسنا لوحدنا أنا وأختي والدكتور صلاح وعقيلته وأخته نضال والسيدة إنعام على طاولة واحدة. في حين جلس مرافقونا عامر ومحمد على طاولة أخرى خلفنا.



إن أكل المسكوف بالأيدي يكون ألذ وأطيب. لقد عادت بي الذاكرة عندما كنت طفلة حيث كنت أفضل الأكل بأصابعي، الأمر الذي كان يفسد ملابسي.

بعد تناول الغداء، أكملنا صحبتنا بالانتقال إلى طابق أعلى في شرفة كبيرة مطلة على النهر. تناولنا الشاي والفواكه المقشرة والمقطعة. كان لذيذاً، حتى أنني من فرط استعجالي قمت بإراقة عصير الرمان على قميصي.



في المطعم التقينا بأشهر مشجعي كرة القدم في العراق. هذا الرجل (مهدي) مجنون بكرة القدم كما علمنا. وحالما علم الرجل أننا من هولندا حتى تلفظ بأسماء (أياكس)[1] و (كراوف)[2].

(١) فريق أياكس وتكتب Ajax من أشهر نوادي كرة القدم الهولندية. وهو أحد أهم ثلاثة أندية كرة قدم في هولندا، إضافة إلى فينورد Feyenoord وفريق PSV. تأسس نادي أياكس في ١٨/٣/١٩٠٠، أي قبل ١١٣ عاماً. مقره في مدينة أمستردام حيث يلعب في ملعب أمستردام إيرينا Amsterdam Arena.(يسع ٥٢ ألف متفرج). يرتدي الفريق الملابس الأحمر والأبيض عندما يلعب في هولندا، ويرتدي الأخضر والأسود عندما يلعب خارج هولندا.

(٢) يوهان كراوف Johan Cruyff مواليد ٢٥ نيسان ١٩٤٧ في أمستردام. وهو أشهر لاعب كرة هولندي. حاز على المركز الأول لجائزة Ballon d'Or لثلاث مرات في الأعوام ١٩٧١ و١٩٧٣ و١٩٧٤. وهي الجائزة التي حصل عليها مايكل بلاتينيوماركو فان باستن وليونيل ميسي.



السيد (مهدي) أشهر مشجع رياضي في بغداد

بعد الغداء انشغل السيد المحافظ، الذي يحظى بشعبية واضحة، بالاستجابة إلى طلب موظفي المطعم الذين طلبوا منه التقاط صورة تذكارية معهم. كما شكرت السيدة إنعام العاملين في المطعم على حسن ضيافتهم واستقبالهم لنا وخاصة على المسكوف اللذيذ. فعلاً تناولنا طعاماً شهياً.

حضور مسرحية

بعد ذلك عدنا إلى المنزل للراحة ، لأننا في المساء سنحضر عرض مسرحية في مسرح بغداد . كانت المناسبة إقامة (مهرجان بغداد لمسرح الشباب العربي) الذي يستمر لمدة أسبوع ، وسنشاهد مسرحية لمجموعة شباب مصريين. كان الجمهور يجلس على خشبة المسرح الواسعة، وكان الممثلون والممثلات يجلسون بينهم. كان هدف المخرج هو تحقيق التفاعل مع الجمهور. كنا نجلس بالطبع في الصف الأمامي إلى جانب السيد المحافظ ، وكانت إلى جنبنا تجلس إحدى الممثلات العراقيات الشهيرات.

كانت المسرحية تتحدث عن شاب قتل والديه لأنهما كانا يمنعانه من التعبير عن رأيه. هنا نشبت (حرب) بينه وبين أختيه ، وتستمر كل القصة حول هذا الصراع، وحياة الشاب ، تحقيق الشرطة وإجراءات المحكمة، وندم الابن. كانت المسرحية تتضمن قطعاً موسيقية على آلات الكمان والجلو. وما زلت أتذكر النغمة الأخيرة، ولا أعرف اسمها .

لم يكن بإمكاني فهم كلام الممثلين والممثلات، ولكن من خلال شرح السيدة جنان ،وكذلك حركات الممثلين كنت أتابع المسرحية جيداً . كانت مسرحية جميلة وتصفيق حاد لها . قام الدكتور صلاح بإهداء باقة ورد للممثل الرئيس ، كما تلقى هدية من نقيب الصحفيين . كنت متشوقة جداً لمعرفة ما هي، وهل ستجد مكانها في المتحف الصغير في البيت.[1]

في المنزل ارتدينا ملابس البيت التي أهدتنا إياها السيدة نضال ، حيث تبادلنا الأثواب مع إنكيبورغ التي حصلت على الثوب الأحمر، وأنا حصلت على الآخر. أثناء تناول العشاء شاهدنا نشرات الأخبار في التلفزيون العراقي حيث كان خبر احتفال عرض الكتاب في المركز الثقافي البغدادي . علمنا من إنعام أن مراسل التلفزيون أخطأ عندما نسب الكتاب إلينا وليس إلى جدتنا . قامت إنعام

(١) الهدية عبارة عن مجموعة كتب تتحدث عن الفن والمسرح.

بتصويرنا ونحن نشاهد التلفزيون ، كان الخبر سريعاً ولكنه تضمن عبارات لطيفة. أخبرنا الدكتور صلاح بأننا سنحصل على نسخة من الفلم الذي تم عرضه في الاحتفال. لقد أفرحني ذلك حقاً، لأن الفلم كان رائعاً جداً.

غدا سنزور مدينة بابل التاريخية، وعلينا أن نستيقظ مبكرين لأن أمامنا سفراً. وسيكون الانطلاق الساعة الثامنة صباحاً.

الفصل الرابع

السبت ١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢

استيقظنا اليوم مبكرين ، ثم تحركنا الساعة الثامنة باتجاه بابل. قبل الانطلاق كان أمامنا وقت لتدوين مذكراتنا. جلست إنكيبورغ على السلم قرب الشرفة (البالكون) ، وجلست أنا مسترخية على الأرض في باب الحديقة المفتوح. كان الجو جميلاً ، وسيكون يوماً صحواً.

لم تأتِ السيدة جنان معنا اليوم لأنها ستزور أختها. ولذلك جلسنا مع إنعام في سيارة واحدة. لم يقبل السيد عامر حتى تم استبدال السائق واسمه علي، وبقي السائق أبو جعفر في بغداد.



■ علي

للأسف لم يأت أبو جعفر هذه المرة ، رغم أننا كنا راغبين بوجوده معنا، لكننا وجدنا علي جيداً. مع ذلك كان لطيفاً جداً أن نقول بالعربية (صباح الخير Sabah Helger) وأن يجيبنا مرافقونا صباح الخير بالهولندية (خود مورخن Goede morgen) التي تعلموها منا. لقد تعلمنا عدة كلمات عربية منهم كما علمناهم كلمات هولندية أيضاً. تعلمنا (شكراً Shukran) و(يالله يالله Jalla Jalla) أي أسرعوا أسرعوا.[1]

كان محمد يريد إراءتنا وإسماعنا بأنه يستطيع تقليد الكلمات الإيطالية والفرنسية.

---

(١) يلفظ الهولنديون بعض الحروف اللاتينية بطريقة مختلفة مثلاً : حرف G يلفظ خاء وليس جيم ، وحرف J يلفظ ياء وليس جي.

قامت إنكيبورغ بإعطائه قاموس هولندي-عربي. وكنت أتوق لرؤية كيف يجرؤ محمد على تقليدنا. كان محمد متحمساً للتعلم، ولديه شعور جميل.

السفر إلى بابل

استغرق السفر إلى بابل قرابة ثلاث ساعات. أثناء الطريق الكثير من المناطق المتضررة ومنازل غير مكتملة البناء. من غير المفهوم لماذا لم تنجز حتى يعود ساكنوها إليها. وللأسف كان هناك الكثير من النفايات على جانبي الطريق، يبدو أنها ألقيت بطريقة عشوائية. عندما كان المرور يتوقف كنا نشاهد رجالاً وأطفالاً يمشون بين السيارات وهم يبيعون كل شيء. إنهم يأتون من الدكاكين الكثيرة المنتشرة على الطريق.
أخبرنا محمد بأن الطريق إلى بابل لم يكن آمناً حتى بضع سنوات سابقة. كنت سعيدة بأن هؤلاء الشباب معنا ونحن نشعر بالأمان معهم. بعد مسير ساعة ونصف قلت لمحمد بأنني بحاجة إلى الذهاب إلى المرافق الصحية. كان باستطاعتي تحمل ذلك لكن الآن أصبح الأمر حرجاً. كان يجب أن نتوقف في الطريق، وقضاء الحاجة خلف أحد الأشجار، لكن لا يمكن ذلك هنا. وبعد التشاور مع بقية المرافقين علمنا بوجود محطة بنزين أمامنا. كان على الجميع أن يقطع المسير ويتوقف من أجل (السيدة) التي تريد قضاء حاجتها.[1] عند توقفنا عند محطة البنزين كان يجب على الشباب أن يتأكدوا أنها آمنة، ثم أشاروا لي وإنعام بالنزول من السيارة. وللإطمئنان قمت بارتداء الشال على شعري ورأسي قبل النزول. إنك لا تعرف كيف سيكون رد فعل الناس في هذا المكان من مشاهدة امرأة بلا حجاب الرأس.

دخلت إنعام قبلي ورأت المرافق الصحية، ثم عبست وجهها قائلة: بالنجاح! ثم دفعتني إلى مرافق سيئة. لم أعرف لماذا لم يتم تنظيف المرافق الصحية بشكل عادي؟ ألا يكون ذلك لطيفاً للجميع؟ لا يوجد ورق صحي، فقمت باستخدام الورق الصحي الجيبي الذي عادة أحتفظ به في حقيبتي. بعد أن عدت من المرافق الصحية كان الشباب واقفين خارجاً وبجانب السيارات ينتظروننا. حسب علمي، لم يتضايقوا من التوقف في

---

(١) كانت كارين عانت من فشل كلوي، وتم زرع كلية من أحد المتبرعين. وقد استشارت طبيبها قبل السفر إلى العراق فلم يمانع. وهي تتناول أدوية وحبوباً كثيرة لتفادي أي التهاب أو مرض يعيق عمل الكلية. كما أن بعض الأدوية تقوم بتفعيل الإدرار لذلك كانت بحاجة إلى التبول في فترات متقاربة.

الطريق، على الأقل تمكنوا من تدخين سيكارة خلال تلك البرهة.



على أية حال ، كان في الطريق الكثير مما يمكن مشاهدته. مرت أمامنا سيارة تحمل على سطحها تابوتاً. أخبرنا محمد بأن المسلمين الشيعة يقومون بنقل موتاهم من كل أنحاء العالم إلى مدينة النجف الأشرف لدفنهم بجانب أقاربهم وأهلهم. إن مدينة النجف مدينة مقدسة بنظر المسلمين الشيعة ، وتوجد فيها أكبر مقبرة في العالم الإسلامي تسمى (وادي السلام).

بعد مغادرتنا حدود محافظة بغداد ، دخلنا في الحدود الإدارية لمحافظة بابل ، توقفنا عند سيطرة عسكرية ثم واصلنا طريقنا. إن الأراضي التي نسير فيها الآن تبدو أكثر خضرة ، وسرعان ما بدأت تسقط الأمطار فقال الشباب لنا (أرجلكم خضراء) وهي عبارة عراقية تشير إلى التفاؤل بأن المطر المثمر بدأ بوصولنا هناك.

بدأت بابل تظهر من بعيد ، فقمنا باصطحاب الدليل واسمه (رحبي) الذي كان بانتظارنا في أحد نقاط السيطرة.[1]



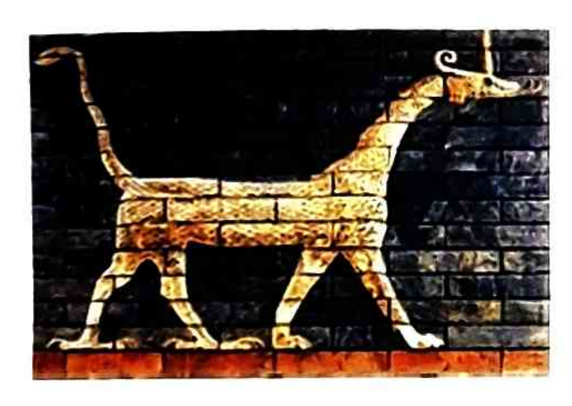
■ رحبي

(١) تم تنظيم الزيارة من قبل مكتبنا بالاتفاق مع مكتب محافظ بابل ، حيث تم تنظيم الدخول والخروج والزيارة والتوقف والاستراحة في دار الضيافة الخاصة .

بوابة عشتار

كان باستقبالنا وفد من محافظة بابل، جاء برفقة مجموعة من الشرطة من الحلة. التقينا بهم أمام بوابة عشتار الشهيرة ، وهي إلهة بابلية تعود إلى بلاد الرافدين (ميسوبوتاميا). بنيت البوابة عام ٥٧٥ قبل الميلاد من قبل الملك نبوخذنصر الثاني. كان على البوابة صور للتنين الأسطوري ،وكذلك للثور. هذه المعالم كانت موجودة في جميع جدران بابل القديمة.





عند البوابة التقطنا عدة صور، كنا نقف في نفس المكان الذي وقف فيه والدنا وجدتنا ، اليوم فعلاً نقتفي «آثار أقدامهما». كان رحبي يعمل في الآثار، ويجيد الإنكليزية ، أخبرنا بأن البوابة الأصلية تم تفكيكها من قبل الخبراء الألمان ، ثم جرى بناؤها مرة أخرى حيث تقف الآن في متحف بيرجامون Bergamon ببرلين. لقد مجدنا أن البوابة تعود للعراق ويجب أن تعود إلى مكانها الأصلي. في جانب آخر تحدث معنا رحبي فقال أنه سعيد أن البوابة محفوظة في مكانها (في برلين). [1]

يبدو أن العراقيين لا يعيرون اهتماماً لكنوزهم الآثارية والتاريخية. ورأينا استغرابهم منا عندما شاهدوا كل تلك الأغراض التي احتفظنا بها لنصف قرن وهي تعود إلى والدينا. يبدي العراقيون اهتماماً قليلاً بتاريخهم الزاخر وحتى

(١) في الثلاثينيات من القرن العشرين تم الكشف عن بوابة عشتار من قبل عالم الآثار روبرت كولدوي Robert Koldewey . يبلغ ارتفاعها ٢٠ متراً وعرضها ١٤ متراً. تم نهب العديد من مجسمات جدران (شارع الموكب) الذي يبدأ بالبوابة. فهناك مجسمات تنين وأسد وثور موجودة في متاحف اسطنبول ، ومعهد الفنون في ديترويت، ومتحف روسكا في السويد. ويوجد تنين واحد وأسد واحد في متحف اللوفر بباريس ومتحف الفن المصري في ميونيخ بألمانيا، ومتحف رويال في تورنتو بكندا، ومتحف متروبولتان في نيويورك، ومتحف الفنون الجميلة في بوسطن، ومتحف جامعة ييل في أمريكا. ففي كل واحد يوجد أسد بابل أصلي.

في بابل. إذ توجد النفايات حتى أن رحبي نفسه قد انتقد ذلك. وذكر أنه طالما طلب نصب حاويات نفايات في الشوارع لكن لا أحد يستمع إليه. ورأينا بئراً تاريخية عميقة ، يعود عمرها لقرون طويلة ، قد ملئ بقناني بلاستيكية. غير معقول: بلاد الرافدين التي هي أساس ومصدر الحضارة الحالية ، وتعاني اليوم ما نراه من إهمال. لا يمكن أن أعبر عن حزني العميق.

تحدث رحبي بحماس وهو يشرح لنا كيف بنى نبوخذنصر قصره في بابل. بقي من القصر التاريخي القديم أساساته الأصلية التي تم ترميمها مؤخراً. بإمكانك أن ترى أي جزء قديم، وأي جزء جديد . من الأمور الاستثنائية مشاهدة ختم نبوخذنصر على الآجر المستخدم في البناء. وفي الجزء الجديد رأينا ختم صدام حسين على الآجر المستخدم في الجدران المبنية على الأسس القديمة. يبدو أن صداماً يريد تسمية نفسه نبوخذنصر جديد، يا للحماقة.

تم حفظ الشارع الرئيس لمدينة بابل بشكل جيد . وما زالت طبقة الرمل ومادة ماسكة ثم كسيت بأحجار كبيرة. من غير المعقول أنك تقف هنا على تاريخ عمره ٢٥٠٠ عاماً . شخصياً وجدت الخرائب القديمة هي الأجمل، وهي التي بقيت رغم الزمن. إنها قطعة تاريخ مؤثرة.



آثار الجنائن المعلقة

في هذا التاريخ الغابر ينتصب أسد بابل. لا يوجد الأسد في المكان الأصلي كان فيه. ولكن على أية حال ما زال باقياً.



عند الأسد التقينا بمجموعة من الشباب الآثوري[1] ، وهم طلاب من بغداد ، جاءوا يتجولون في تاريخهم الآشوري الخاص بهم.[2]



(١) يعيش المكون الآثوري في العراق وخاصة في الموصل ودهوك إضافة إلى بغداد. ويقدر عددهم نصف مليون نسمة.

(٢) كثيراً ما تخلط السيدة كارين بين البابليين الذي بنوا مدينة بابل وأنشأوا الحضارة البابلية ، وبين الآشوريين الذي أنشأوا الحضارة الآشورية في شمال العراق في منطقة نينوى. وآثار نينوى مشهورة بالثور المجنح ،وهو حيوان أسطوري له جسم ثور ورأس إنسان.

أثناء تجولنا بين الآثار، رافقنا فتى عمره ١٣ سنة، اسمه حسن، وهو ابن أحد أعضاء وفد الحلة الذي جاء لاستقبالنا . كان حسن فتى لطيفاً ، وأبدى رغبته بمرافقتنا، وأراد التقاط صورة معي.



في قصر صدام

بعد جولة جميلة بقيادة السيد رحبي في بابل القديمة، ذهبنا لزيارة قصر صدام الذي بني على أطلال بابل ، فوق هضبة مرتفعة، ومن شرفته تشاهد نهر الفرات.



صورة للقصر على الهضبة من خلال أطلال بابل

بعد سقوط صدام ، قام الأمريكان بنهب القصر وكأنه ملك لشعبهم. كما كانت هناك مجسمات لصدام على الجدران ، تم قلعها . هنا يمكنك أن ترى كيف كان صدام يعيش حياة مرفهة على ظهور الشعب. في شرفة القصر قام الشباب بالتقاط صور لنا . لقد كان يوماً رائعاً حقاً.

يحيط بالقصر متنزه واسع ، كان في السابق ممنوعاً على الشعب، لكنه اليوم مفتوح أمامه. وتوجد في المتنزه دار استراحة زوجة صدام (ساجدة). تم تأهيل الاستراحة وحتى غرفة نوم السيدة. كان بإمكاننا دخول الغرفة وقضاء وقت، لكن لم نشعر برغبة لذلك. بالطبع التقطنا صوراً وفلماً للسرير. هذه الغرفة معروضة للإيجار، حيث يقوم العرسان بقضاء ليلة الزفاف فيها .





غرفة نوم صدام

بسبب الطريق الطويل، توجب علينا مغادرة المكان في وقت مبكر للعودة إلى بغداد، ونتناول الغداء في أحد المطاعم على الطريق.
هنا قمنا بزيارة محطة إذاعة مخصصة للشباب في بابل. قاموا بإجراء مقابلة معنا حول سبب زيارتنا للعراق وكذلك زيارتنا لبابل. أجابت إنكيبورغ الشباب بأن زيارتنا لبابل تأتي لاحترامنا الجم لتاريخنا. بالطبع قامت إنعام بالترجمة والحديث عن قصتنا بالتفصيل. بعد ذلك تناولنا الطعام ، حيث جلس عامر ومحمد معنا على الطاولة بناء على طلبنا . وجلس بقية الشباب على طاولات أخرى. أنا سعيدة بأننا بإمكاننا أن نجلس على طاولة واحدة مع أصدقاء جيدين ،وأن نتناول الطعام سوية. للأسف لم يكن أبو جعفر معنا.



بعد وصولنا للمنزل ، نمنا ساعة ، فالجو هنا حار، والبرنامج مليء. ولكن سرعان ما انقطعت غفوتنا بصوت الأذان .كنا قررنا أن ننام مبكرين استعداداً لبرنامج اليوم التالي، لكن الجلوس مع المحافظ وعقيلته كان قد استغرقنا حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً، ثم توجهنا إلى السرير.

الفصل الخامس

الأحد ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١٢

استيقظنا هذا الصباح الساعة السابعة ، إذ لدينا الكثير لفعله هذا اليوم. سنزور حديقة حيوانات بغداد الواقعة في متنزه الزوراء، حيث توجد مدينة ألعاب دائمة أيضاً. كما سنشارك في قداس مسيحي في كنيسة السريان الأرثوذكس (الصحيح الكاثوليك) في بغداد.

أما أولاً سنتناول الفطور مع السيد المحافظ وعقيلته، وهي بداية محببة لليوم. وسترافقنا السيدة عقيلته مرة أخرى ، فستكون صحبة جميلة.

جاء الشباب مبكرين لاصطحابنا ، وبالتأكيد تبادلنا تحيات الصباح الضرورية (صباح الخير) بالعربية، ثم تحركنا باتجاه حديقة الحيوانات. تقع الحديقة في متنزه الزوراء. وهناك حماية كبيرة للمتنزه وللحيوانات.



تم إنشاء حديقة حيوانات الزوراء عام ١٩٧١ [١]. وبعد سقوط نظام صدام تعرضت للنهب بعد أن غادرها الحراس خوفاً على حياتهم من المعارك بين الجنود الأمريكان وقوات صدام. تركوا الحيوانات بلا طعام ولا ماء. ومع ذلك نجا ٣٥ حيواناً.

قمنا بجولة بمرافقة طبيب بيطري يتحدث الانكليزية الذي قدم لنا شرحاً وافياً حول إعادة تأهيل حديقة الحيوانات. وروى لنا قصة حادث تسبب الأمريكان في وفاة أحد الدببة. قام الأمريكان بشراء دب عوضاً عن الدب الميت . في ختام القصة تساءلت إنكيبورغ : لماذا لم يعوض الأمريكان للضحايا العراقيين الذين سقطوا في الحرب؟

كانت حديقة حيوانات الزوراء أكبر حديقة حيوانات في الشرق الأوسط، وكانت تضم أكثر من ألف حيوان. وما يزال العمل مستمراً فيها لإعادة إعمارها ، ولكنني أراها الآن جميلة.





إستراحة قصيرة في متنزه الزوراء

من الحيوانات التي أثارت انتباهنا لبوتين كانتا من ممتلكات عدي صدام حسين. كان عدي غالباً ما يتجول مع هاتين اللبوتين في الشارع لإثارة الذعر في نفوس أهالي بغداد خوفاً من أن يهجما عليهم. هل تتصور معتوهاً أكثر من هذا !

---

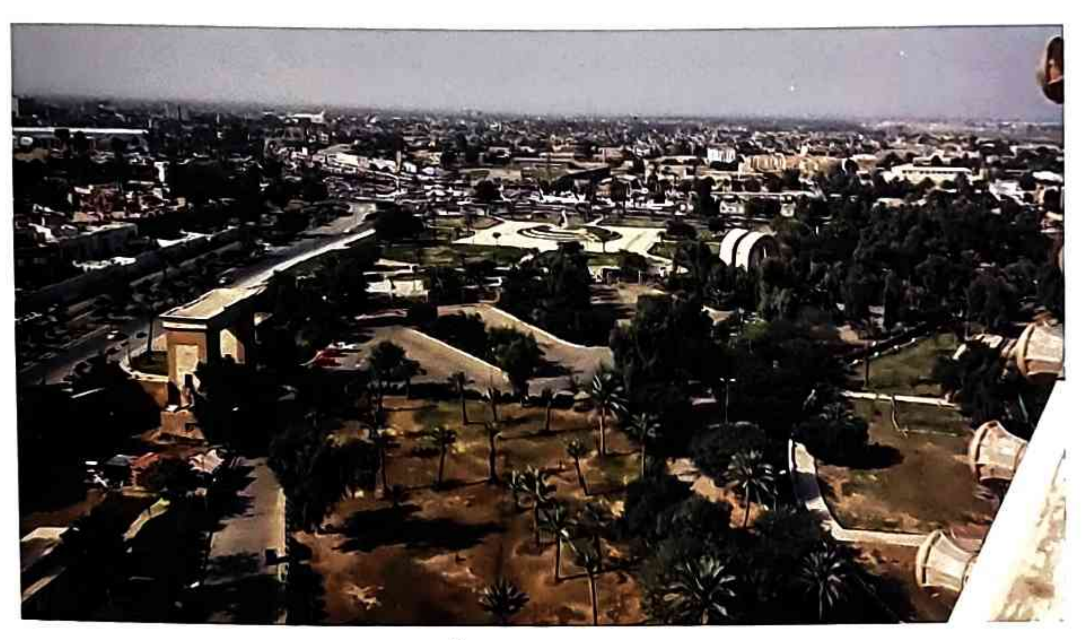
(١) يقع متنزه الزوراء في جانب الكرخ ببغداد. وكان في الأصل معسكراً للجيش العراقي باسم (معسكر الوشاش) . تم تحويله في بداية السبعينات من القرن العشرين إلى متنزه ، يضم حدائق ومطاعم وكافتيريات وبحيرات وحديقة حيوانات وقبة فلكية. وهي بمثابة رئة تتنفس فيها العائلات العراقية وخاصة أيام العطلات والأعياد.

عدي، كما قيل لنا، أجبر السيرك الروسي على إهدائه أسداً من السيرك. وكانت النتيجة ولادة أنواع من الأشبال التي لا تزال موجودة في حديقة الحيوانات.

بعد زيارة حديقة الحيوانات جلسنا للاستراحة في مكان جميل، وتناولنا المشروبات الغازية. وجدت إنكيبورغ الفرصة لقراءة إحدى الصحف، حيث يجب أن تكون على إطلاع على ما يجري.



بعد ذلك ذهبنا إلى مدينة الألعاب . ومن دولاب الهواء العالي، الذي جلست في أحد كراسيه رغم مشاعر الخوف لديّ من المناطق العالية، تمكنت من مشاهدة منظر رائع لبغداد. أرى الآن بغداد كم هي واسعة. ولكنني كنت سعيدة بعد نزولي من الدولاب سالمة، ولامست قدماي الأرض مرة أخرى. لم أكن سابقاً من محبي صعود الدولاب.



مشهد لبغداد من الأعلى

كانت هناك أشياء أخرى جميلة يمكن القيام بها. شاهدنا فلماً 5D (ذي الأبعاد الخمسة). كان فلماً بديعاً ، تشعر كأنك جزء من الفلم ، فيه ضحك كثير. بعد ذلك ذهبنا إلى لعبة تصادم السيارات الكهربائية ، عندما اعتقد الشباب أننا بحاجة إلى صراخ وإثارة ، فنسوا أنفسهم .

قمت بقيادة إحدى السيارات وتقدمت أمامهم لأريهم كيف هي قدرة النساء على الجلوس خلف المقود. لقد كانت مجرد لعبة لكنني نجحت فيها. مع ذلك تجد هنا القليل من النساء خلف المقود، والتغيير قادم.

تجولنا في المتنزه حتى وصلنا حدائق الزهور الرائعة . وكانت كل بلدية في أمانة بغداد قد أنشأت جزءاً . شاهدنا قسم بلدية الكرادة ، التي يقع فيها نادي العلوية، كانت الحديقة على شكل حمامتين، عملت بشكل جميل جداً.

قام محمد بشراء زهور صناعية ووزعها علينا إضافة إلى خطيبته آية. كانت لمسة جميلة لكنني للأسف فقدت زهرتي في المتنزه. لقد وضعتها في حقيبتي ، لا أعلم كيف سقطت منها؟ لم أجدها ، ولا توجد زهور أخرى للبيع، فقد نفدت جميعاً. قام محمد بإعطائي وردة خطيبته، لكنني وجدت من غير المناسب أن آخذ هديتها.

في السيارة، وأثناء سيرنا باتجاه (مطعم الأندلس) لتناول الغداء، اتصل محمد بآية ،

وناولي الهاتف لأكلمها والتعرف عليها. كانت تتحدث الإنكليزية بطلاقة ، ولها صوت أليف وحميم. حاولت آية إقناعي بأخذ الوردة . وأخيراً قبلتها ، وسأحافظ عليها بعناية هذه المرة كي لا تضيع مني.



في مطعم الأندلس تأخر الطعام كثيراً جداً حتى جاءنا نحن السيدات. بينما تناول الشباب طعامهم قبلنا . ولم أعرف السبب حتى الآن! التدخين ممنوع في الأماكن العامة ، وهذا واضح تماماً . لكن النادل الذي يخدمنا أشعل سيكارته وهو جالس على الطاولة. وجدت ذلك سيئاً جداً . ولكن للإنصاف كان الطعام لذيذاً .

بعد الغداء ذهبنا بسرعة إلى المنزل للاستراحة ، ثم نذهب لحضور قداس في كنيسة السريان الأرثوذكس (الصحيح الكاثوليك) في بغداد.[١] توجد في بغداد ٦٩ كنيسة ، وسيضع السيد المحافظ حجر الأساس هذا الأسبوع لتشييد كنيسة قبطية جديدة في بغداد.[٢] لم أتوقع وجود هذا العدد من الكنائس في بغداد . ويقوم الدكتور صلاح باستمرار بزيارات للكنائس من مختلف الطوائف المسيحية ، ويسعى لجمعهم معاً . هدف نبيل، أن تجمع كل الناس بغض النظر عن الدين والعقيدة، وأن يعيشوا بسلام في

---

(١) هي كنيسة مريم العذراء في المنصور. ويرأسها الأب بيوس قاشا . ولنا علاقات معها حيث نزورها في المناسبات المسيحية . كما يزورنا الأب في احتفالاتنا ومناسباتنا. وقد دعيت مرة لحضور حفل توقيع كتاب مصور عن جريمة (كنيسة سيدة النجاة) للسريان الكاثوليك في الكرادة التي تعرضت لاقتحام مجموعة من عناصر القاعدة الإرهابيين بقيادة حذيفة البطاوي فقتلوا أكثر من ثمانية وخمسين مصلياً كانوا يحضرون قداساً يوم الأحد الموافق 2010/11/31 . وزارني الأب بيوس مرة ومعه هدية، وأخبرني بأنه كان في زيارة للفاتيكان والتقى بالبابا ، وحدثه عن محافظ بغداد وتضامنه مع المسيحيين ودعمه للكنائس، فطلب منه البابا نقل تحياته للمحافظ.

(٢) حضر الاحتفال مجموعة من رجال الدين المسيحيين والسفير المصري شاهين.

بغداد.[1]

استقبلنا بحفاوة كبيرة أكبر مما توقعنا، فقررنا أن نشارك في القداس ، والاندماج مع المصلين الحاضرين. كانت الكنيسة جميلة جداً وإضاءة كثيرة . وكان هناك جوق ينشد أناشيد حديثة . وبدون مساعدة إنعام كنت أتابع القداس ومحتويات الأناشيد .

بدأ القس موعظته بتعريفنا إلى الجمهور ،وسبب زيارتنا لبغداد . تم الطلب من إنعام الحديث عن قصتنا ، وعن صداقتنا ، التي تكللت بهذه الزيارة لبغداد، ثم جئنا معاً لحضور القداس.

بعد انتهاء المراسم ، جاء كل واحد منهم لأخذ صورة معنا . لقد غمرونا بمحبتهم ورفقتهم الجميلة. ثم تناولنا فطائر تم توزيعها على الحاضرين، وصافحنا الجميع. بعد ذلك تمت دعوتنا للحضور مع راعي الكنيسة ومجموعة من الناس الهامين ، إلى داخل الكنيسة لتناول الخبز.

هناك تمكنا من الحديث بشكل موسع مع أناس مختلفين . وكان من بينهم سيدة جالسة في القداس. تدرس (ليزان) التمريض ، وهي متحدثة جيدة.

أخبرنا الأب بأنه يعمل في الكنيسة طوال ٣٠ عاماً ، ولحد الآن لم تغلق الكنيسة يوماً واحداً، حتى في الأوقات الصعبة. إن هذا الرجل يبذل كل ما يستطيع لخدمة الكنيسة والجماعة.

لأن الحاج عامر لم يخبرنا بما ينتظرنا ، ولم نكن من أنصار الكنيسة، فقد شعرنا بأنه يعاقبنا . وهذا ما قلناه له بعد انتهاء الزيارة. إن الطريقة التي تحدثنا بها مع عامر ، قد فهمها بأريحية ، ويعود ذلك لطبيعته المريحة.

أخبرت السيدة جنان لماذا لم أكن من مؤمني الكنيسة. إنني أؤمن بأن هناك الكثير (بين الجنة والنار)، لكنني لا أنتمي إلى أية جماعة دينية. إن كل ما يحدث يكون باسم الدين ، هو من فعل الناس ، وليس من فعل أي إله. ولا أعتقد أن إلهاً يرضى أن يقوم البشر بملاحقة أصحاب العقائد الأخرى.

---

(١) في ٢٠١١/١٢/٣٠ أقمنا (معرض عيد الميلاد) في المركز الثقافي البغدادي. حضره عدد كبير من الآباء والقساوسة. وأبدو شكرهم لأنها المرة الأولى التي تقوم الحكومة بالاحتفال بعيد مسيحي. وكنا قد دعونا جميع الكنائس لعرض كتبهم وملابس القداسات والأواني والشمعدانات والإيقونات وغيرها مما يستعمل في الكنائس. إضافة إلى الكتب المقدسة والمخطوطات والصور واللوحات المسيحية.

الفصل السادس

الاثنين ١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢

كان اليوم يوماً طويلاً، بدأنا بعد الاستيقاظ بالنظر ، من خلال الشرفة. إلى المناظر المحيطة بنا في المنزل. بإمكاننا مشاهدة ألوان المدينة ، يا له من فرق!





أثناء سيرنا في شوارع بغداد لاحظنا أن نظام الصرف الصحي غير كفوء ولا يتمكن من سحب كل المياه مرة واحدة. وعندما نتطلع إلى المياه المتجمعة نجد فيها الكثير من النفايات، أخذت بالتفكير فيما كان والدي يقوم به في بناء مشاريع المياه، والتي تدمرت في حرب الخليج الأولى ، كانت والدتي تتألم عندما تنظر إلى مشاهد تدمير تلك المشاريع.

عرفت من محمد أن أصحاب المحلات غير مشمولين بخدمة رفع النفايات. من غير المفهوم أن تبقى النفايات بلا علاج حقيقي من قبل الدوائر المعنية . أرجو أن يحدث تغيير سريع.

على أية حال نحن في طريقنا إلى المتحف **البغدادي**. في هذا المتحف تنغمر في الحياة البغدادية القديمة والتي قد تعود إلى ٧٠ عاماً.



في المتحف البغدادي

في البداية شاهدنا عرضاً للمقام العراقي، حيث يعزفون مقطعات موسيقية عربية قديمة. للموسيقى إيقاع تجعلك لا تستطيع البقاء ساكناً لأنني تدريجياً أخذت أتفاعل معها وأتحرك ، مما جعل الرجال يشاركونني في الرقص. كانت هناك مشكلة صغيرة ، وهي أن ما فعلته لم تقم سيدة من قبل به، ولم يعتادوا على ذلك. وبقيت إنكيبورغ وإنعام جالستين.



ومع تشجيع الجميع رقصت على ألحان أحد الأغاني العراقية القديمة. لقد كان ذلك رائعاً ، وحسب الموسيقيين فإنني أول سيدة غربية ترقص على إيقاع موسيقاهم. لقد شكرتهم جميعاً على أدائهم الجميل.



بعد ذلك كتبت في سجل الزوار كلمتي بالهولندية، بينما قامت إنعام بترجمتها إلى العربية.

ثم تجولنا في المتحف بصحبة أحد الأدلاء. كان الدليل سيدة خبيرة بالمتحف.

إن المتحف البغدادي هو واحد من أجمل المتاحف التي شاهدتها من قبل. في قاعات متنوعة تشاهد الحياة البغدادية من خلال التماثيل والملابس والأدوات والديكورات. كانت التماثيل مصنوعة بإتقان وبتفاصيل دقيقة من أكسسوارات وغيرها أكثر مما تتوقعه. إنها تجذب الأنظار إليها .

وقد عرضوا علينا أن نلتقط صوراً بين التماثيل وداخل المشهد الاجتماعي. لم نوافق لأنه ليس مسموحاً لبقية زوار المتحف ، وربما سيكون مؤثراً عليهم لأنه ليس بإمكانهم التقاط صور مثلنا . لكن موقفنا هذا لم يستمر. إذ حالما دخلنا إلى قاعة الزفة التي تمثل مشهد جلب العروس من بيت أهلها مع وجود حصان يجر عربة، فقد كان هناك مكاناً كي نقف أمام الزفة ونلتقط صوراً .



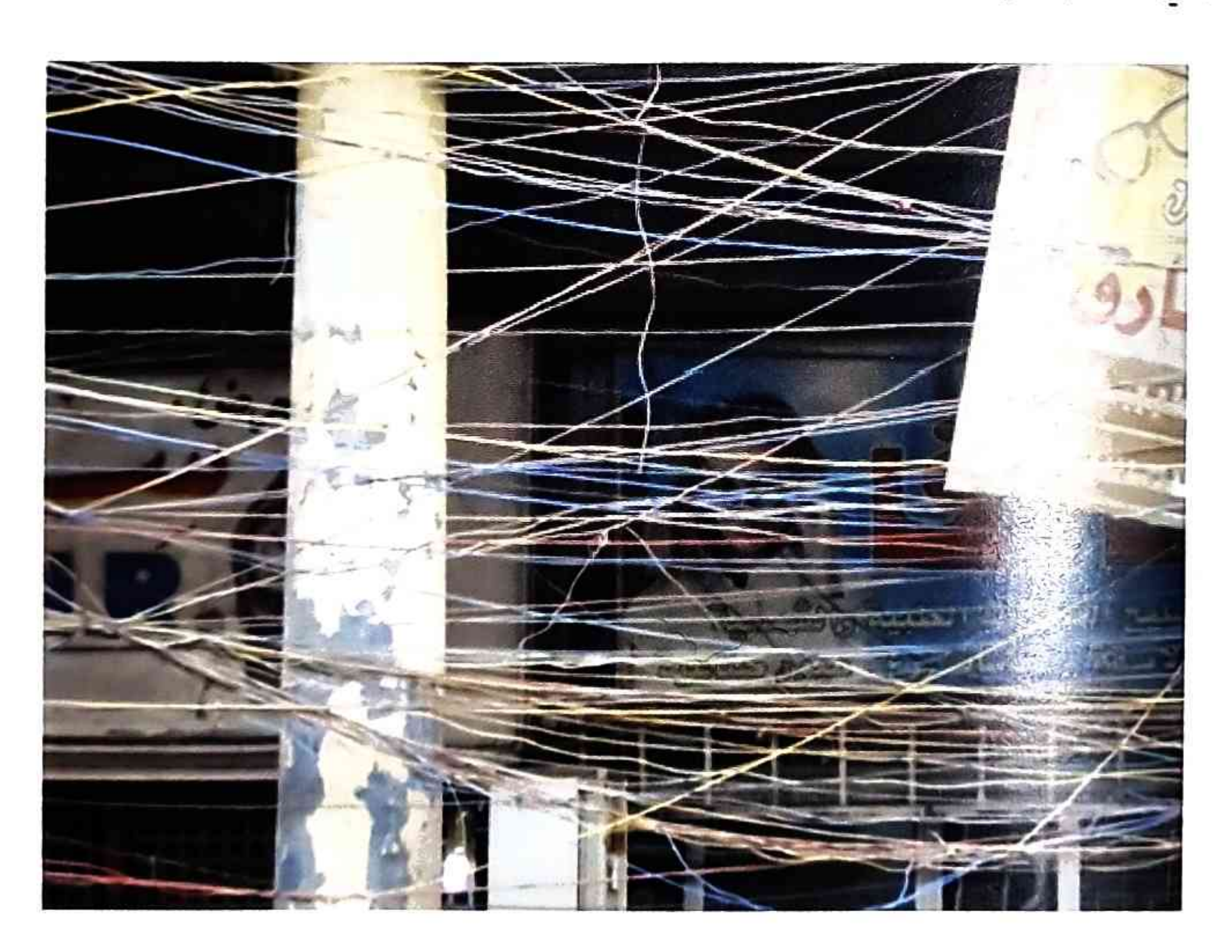
في القاعة التي تصور مشهد تعليم الصبيان (الكتاتيب) تساءلت لماذا لا يوجد مشهد يمثل تعليم الفتيات. وفي غرفة تصور العائلة العراقية تجد النساء يجلسن على الأرض في حين يجلس الرجال على كراسي وأرائك، تساءلت: لماذا هذا؟ أجابني بعضهم بأن المشهد يصور رجالاً عائدين إلى البيت بعد يوم عمل شاق، ومن حقهم أن يستريحوا على الكراسي، وأن تعتني النساء بهم. وكأن النساء لا يفعلن شيئاً طوال اليوم! بالتأكيد عندما تكون لديهن أسرة كبيرة فسيكن مشغولات بالعمل المنزلي ومتعبات مثلهن مثل الرجال. أجد ذلك عدم إنصاف.

إن ذلك لا يعجب كل إنسان، وشرحت لهم بأننا في هولندا تكون المرأة مساوية للرجل. وبالتأكيد فإن الرجال والنساء يتشاركون سوية في العمل المنزلي ، ويقوم الوالدان معاً برعاية الأسرة.

أثناء جولتنا في المتحف ، التقينا بمجموعة من الفتيان الذين أقبلوا نحونا. ربما لأنهم شاهدونا في التلفزيون أو سبب آخر. سألوا إن كان بإمكانهم أن يلتقطوا صورة معنا. بالطبع ، إن قدومنا إلى بغداد جعلنا مميزين.

في شارع النهر

بعد زيارة المتحف البغدادي توجهنا إلى السوق في وسط بغداد.[1] تم تنبيه المرافقين بأن تسوق النساء يحتاج إلى وقت طويل. يقع السوق في حي وسط العاصمة حيث هناك حاجة ماسة إلى الطاقة الكهربائية ويجب تحسينها. إذ تلاحظ أنه بجانب جدران المنازل وعلى طول الشارع تتدلى الأسلاك الكهربائية ، وأن الكهربائي الجيد يستطيع جني الذهب من ذلك.



بجانب السوق هناك نشاط لنقل وتحميل البضائع. لقد شاهدت رجلاً يسحب عربة مثقلة بالحمل.[2]

---

(١) المقصود هو سوق شارع النهر ، وهو من أقدم أسواق بغداد ، يبدأ من جسر الشهداء وينتهي بجسر الأحرار (الصالحية)

(٢) المقصود هو محال بيع الجملة القريبة من ساحة الرصافي.



أول دكان زرناه كان متجراً للمصنوعات الفضية والسجاد. كانت مساحة المحل لا تتجاوز ٥ م٢ . وتجد السجاجيد مطوية أمام الدكان.



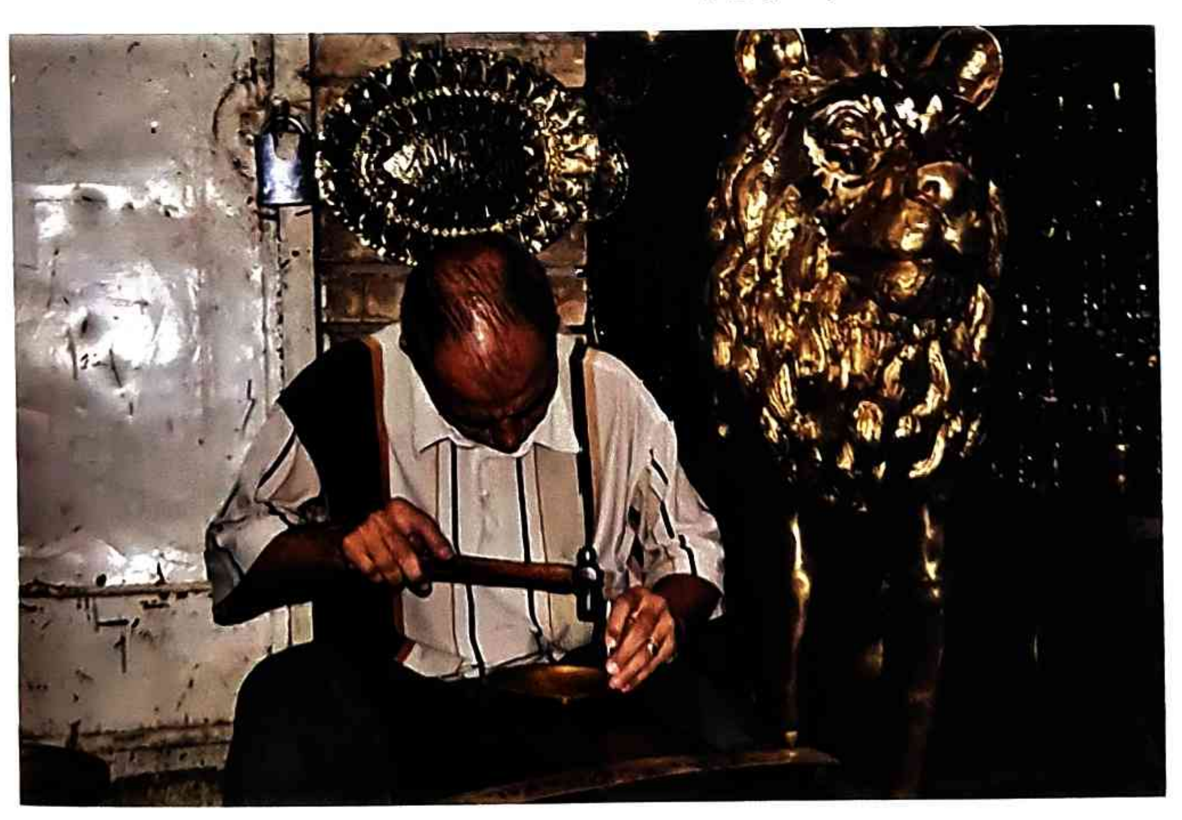


ونحن نشاهد السجاد مر أمامنا حمار يجر عربة محملة بالبضائع. كان ذلك جميلاً حقاً.



في الدكان شاهدت سواراً فضياً فاشتريته لابنتي ليزانه Lisanne . واشترت إنكيبورغ أساور فضية لكل من كيم Kim وميلودي Melody إضافة إلى سجادة بديعة جداً من السجاد العراقي الأصلي الذي كنا نقتنيه في منزلنا في الماضي. قام الشباب بمفاصلة البائع حول الأسعار ، وأعتقد أنهم قاموا بعمل جيد. فقد كانوا سعيدين بالأسعار بعد تخفيضها.

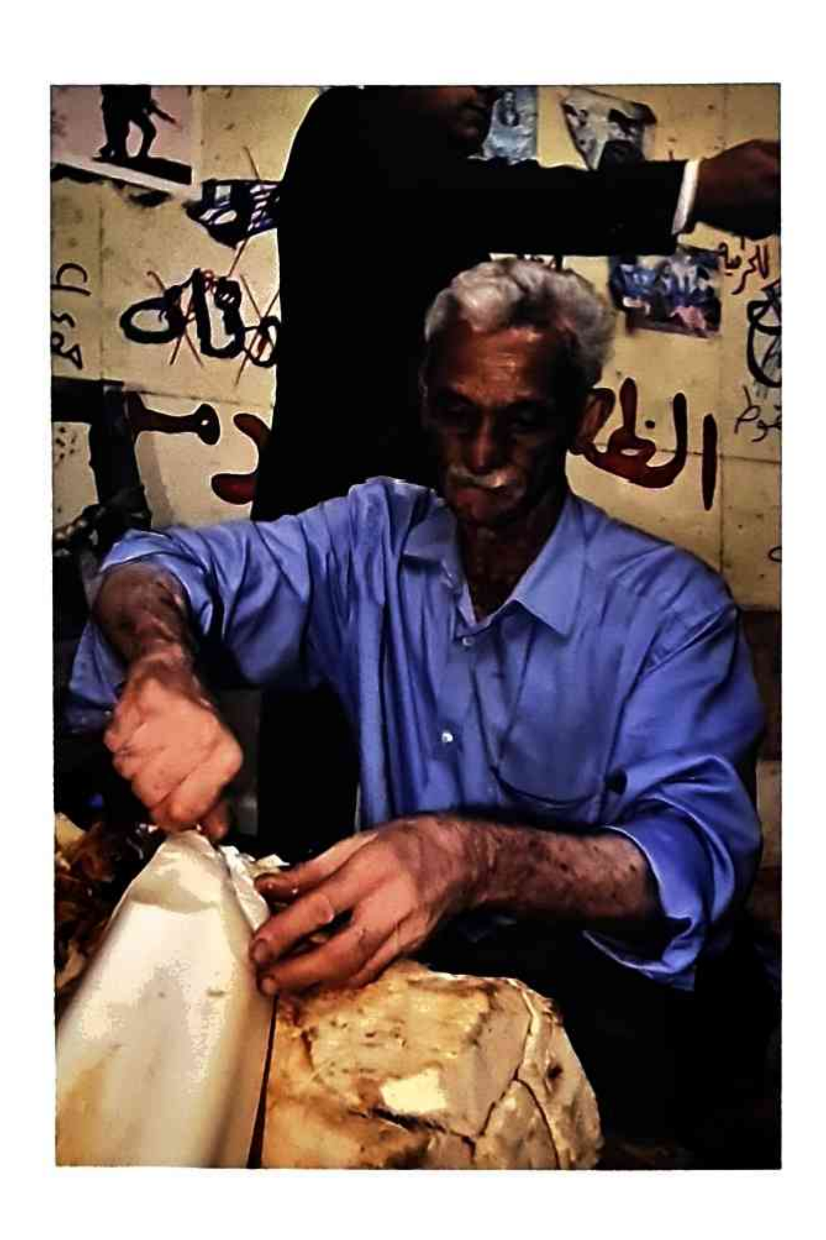
يتضمن السوق على العديد من المحال والدكاكين التي تعرض المصنوعات اليدوية . كما كان بعض الرجال منشغلين بعملهم في صناعة النحاسيات (سوق الصفافير). كان رائعاً أن نشاهدهم وهم يعملون ويصنعون أشياء جميلة. دخلنا أحد الدكاكين واشترينا مصنوعات نحاسية جميلة عمرها أربعون عاماً لكل من أهرين Ahren ، ساندر Sander ، كيليان Kylian و رينيه Rene.



وبسبب ازدياد تساقط المطر لم نتمكن من الاستمرار بالتجول في سوق البهارات (الشورجة)، كان الشارع مليئاً بالطين. للأسف ، ربما ستكون هناك فرصة أخرى. على جانبي الشارع كان الكثير من الباعة يعرضون بضائعهم. فقد كان أحدهم يعرض

سمكاً طازجاً . وهناك بائع يبيع لب النخيل الطازج (الجمّار) ، فطلب الشباب منه أن يقطع لنا قطعاً صغيرة لتجربته.

إن طعم لب النخيل لذيذ ، يميل إلى طعم ثمرة الأفوكادو. عدنا إلى السيارة ونحن نلوك الجمّار. سنذهب إلى نادي العلوية.



في نادي العلوية

في السيارة أهداني محمد سلسلة فضية مع (يد فاطمة) . لقد تعجبت كثيراً، لقد اشترى محمد هذه الميدالية عندما كنا في السوق. إن (يد فاطمة) ستحميني من الشر. شكرت محمداً وقلت له بأننا في هولندا نجده رائعاً أن يقوم أحد بإهدائنا شيئاً وأن نقوم بشكره كثيراً. أعرف بأنني لا يمكنني أن أطبع قبلة على خد محمد ، لكنني ذكرت له بأنه يمكننا أن نصافح الشخص كتعبير عن الشكر، دون أن يكون أي غرض آخر. فكر محمد قليلاً في شرحي، ثم التفت مصافحاً. لقد شعرت بالفخر. شكراً محمد! إنها هدية جميلة من صديق عزيز.



لقد كنت متلهفة جداً لرؤية نادي العلوية. فقد كان أبي وأمي ، عندما كانا يقيمان في بغداد، عضوين في النادي ، وكثيراً ما يقضيان أوقاتاً جميلة فيه. مع الأسف لا أحمل ذكريات واعية تعود لتلك الفترة لأنني كنت طفلة صغيرة.

تم استقبالنا بحفاوة في النادي، تجولنا فيه. توجد حديقة رائعة ، يأتي للنادي الكثير من الناس لقضاء يوم لطيف مع أصدقائهم وعائلاتهم. وكثيراً ما تقام حفلات الأعراس فيه.




مصرف بغداد

بسبب إجراء صيانة وترميم، كان المسبح مغلقاً، لكنهم فتحوا قسماً منه خصوصاً لنا. إن المسبح يحمل ذكريات جميلة لإنكيبورغ، وهنا لم تتمالك مشاعرها، فانفعلت كثيراً.



قبل خمسين عاماً، كانت إنكيبورغ غالباً ما تأتي مع والدي كل صباح للسباحة في هذا المسبح. إن المسبح ذي الشكل الكمثري ما زال هو نفسه. حدثتنا عن الأولاد الذين كانوا يتحرشون بها ببراءة، ثم يفرون راكضين.



إنكيبورغ تسبح في نادي العلوية قبل ٥٠ عاماً

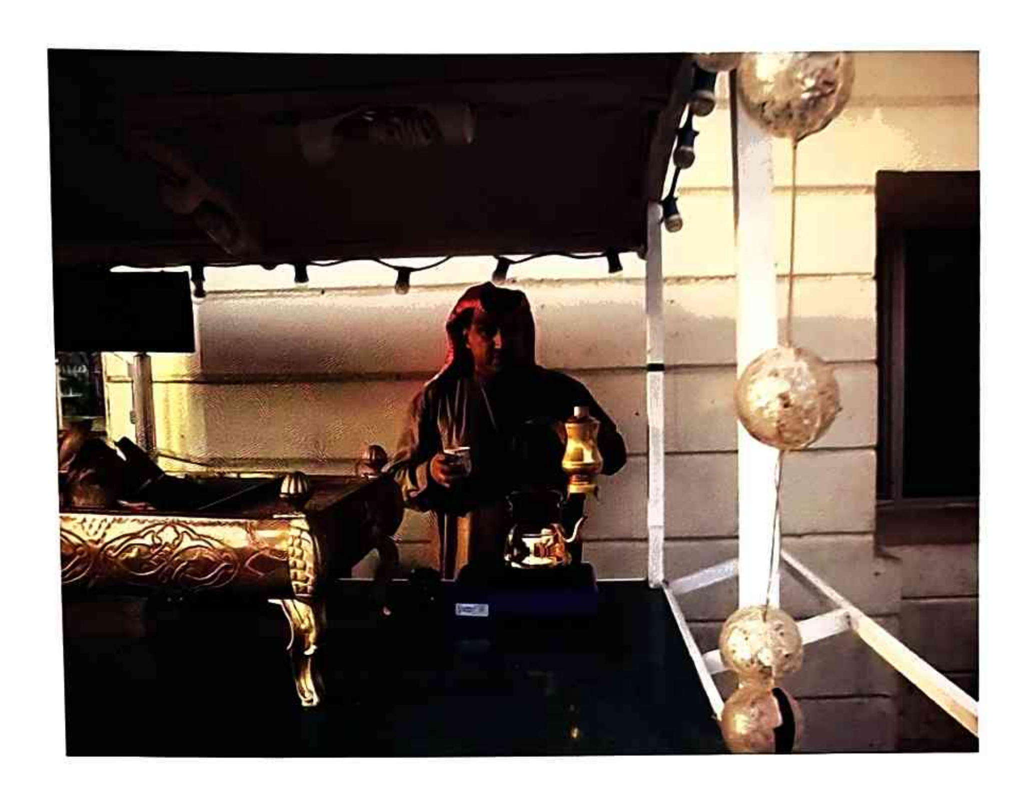
حقاً كنت أتلفت متعجبة، عندما كنا أطفالاً ، هنا كنا نتجول مع ماما وبابا وجدتي. لقد كان ماضياً جميلاً أن قضينا أوقات في هذا المكان. في مطعم النادي تناولنا وجبة غداء شهية، ولو كنت في منزلي لقمت بلعق الصحن على آخره.



أخذت مجموعة مناديل ورقية خاصة بالنادي وعليها شعار النادي، لتكون ذكرى معي.
أخبرنا مدير النادي بأنه سيبحث في أرشيف النادي عسى أن يعثر فيه على اسم عائلتنا.

بالتأكيد هنا دونت جدتي قسماً من مذكراتها ، ولذلك قمنا بتوزيع نسخ من كتابها على أعضاء النادي وزواره. لقد طلبوا مني ومن إنكيبورغ أن نضع تواقيعنا عليها. أليس ذلك جميلاً!

بعد الغداء ذهبت جنان لأداء الصلاة، وأثناء ذلك قمنا بجولة في الحديقة برفقة عامر ومحمد. كان هناك (صانع القهوة) مرتدياً ملابس بغدادية تقليدية، وهو يقدم القهوة لرواد النادي. قبل ذلك كنت قد رأيته يتجول في المطعم. كان وجهه لطيفاً، سألته من خلال محمد: هل أستطيع أن ألتقط صورة له؟



الغداء في المنصور

بعد أن أنهينا جولتنا في النادي توجهنا إلى (ماكسي مول Maximall) وهو سوق تجاري كبير، يعرض كل شيء للبيع. قبل أن يسمح لنا بالدخول، تم تفتيش حقائبنا ، ثم مررنا من خلال بوابة ألكترونية. للأسف ما زالت هناك حاجة ماسة للتفتيش. وبصراحة أجد أن سوق شارع النهر أجمل للتسوق والتجول.

في الطابق العلوي للمول توجد شرفة كبيرة، حيث سنجلس لتناول الشاي والقهوة. هنا أيضاً قمنا بتوزيع نسخ من كتاب الجدة (يوميات بغداد) . وبالتأكيد كانوا يطلبون منا تواقيعنا عليها. نعم لقد صرنا (نجوماً في بغداد).

تحدثت قليلاً مع النادل الذي ذكر لي بأنه يحمل شهادة حقوق ، لكنه لم يتمكن من الحصول على وظيفة. وعند مغادرتنا تمنيت له أن يجد عملاً بسرعة. لقد كانت تلك المحادثة مؤثرة.



(الجدة) في ماكسي مول

من شرفة ماكسي مول كنا نشاهد مناظر رائعة عن بغداد ومنها الجامع الكبير الذي كان طور التشييد . بدأ العمل في الجامع أثناء عهد صدام حسين ، وبعد سقوط صدام عام ٢٠٠٣ توقفت أعمال البناء. وبقيت تنتصب ستة قباب وأخرى هائلة لوحدها بلا عمل. وهذا ما يسمى بهدر المال العام. لم يتم إنجاز الجامع لوجود جدل حول كيفية شكله . أمر غير مفهوم !! [1]



(١) المقصود هو (جامع الرحمن) في المنصور .

بعد عودتنا إلى المنزل كانت السيدة نضال عبد الرزاق هناك. جلبت لنا صحناً كبيراً لأكلة الدولمة التي حضرتها خصيصاً لنا . كان طعمها لذيذاً. حقاً يكمننا أن نسمي السيدة نضال بأميرة المطبخ! إن الدولمة عبارة عن رز ولحم مثروم تحشى به الخضروات كالبصل والفلفل وبالطبع ورق العنب على شكل لفائف صغيرة. بالتأكيد تحتاج إلى وقت طويل لتهيئتها .



صحن الدولمة اللذيذ

قبل أن نبدأ بتناول الطعام، حكت إنعام لنضال قصة رقصي في المتحف البغدادي. أريد أن أعرف ماذا وجدت من ذلك. لقد وجدت ذلك أمراً طبيعياً من سيدة غربية. إذن لم تكن لديها مشكلة.

بعد ليلة لطيفة وتبادل الأحاديث ، ودعنا نضال . أتمنى أن أراها مرة أخرى. لقد انتهى يوم طويل ومليء في بغداد . سنذهب غداً إلى مستشفى سانت رافائيل حيث ولدت إنكيبورغ فيها .

الفصل السابع

الثلاثاء ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢

ساحة التحرير

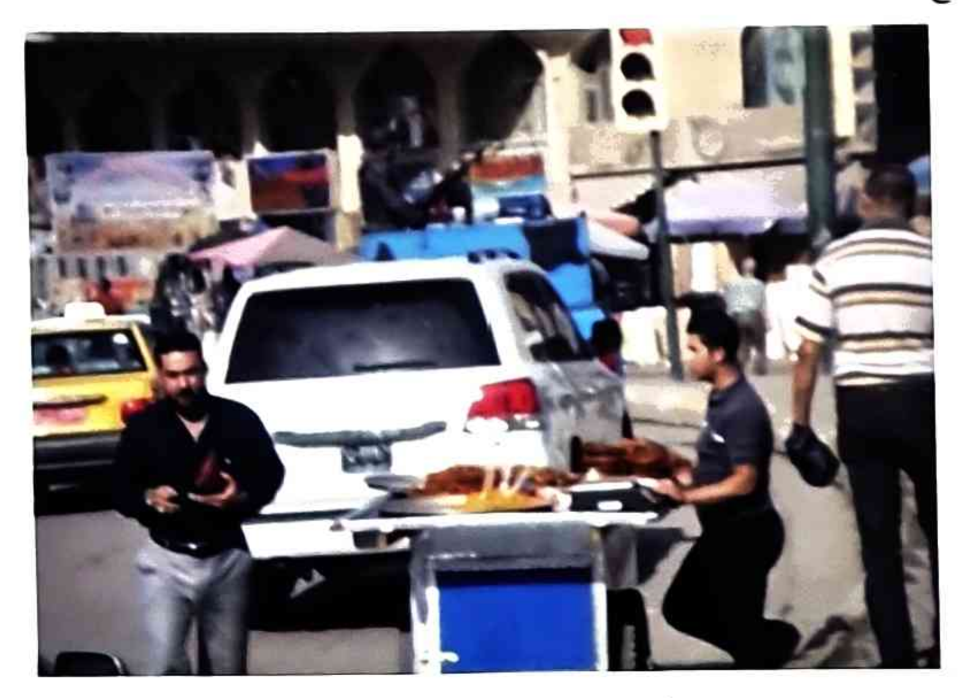
إنه آخر يوم كامل لنا في بغداد . لقد مضت الأيام بسرعة، لأنها كانت جميلة. سنذهب هذا اليوم إلى ساحة التحرير مع نصب الحرية الذي ينتصب وسط العاصمة.[١] تم العمل بهذا النصب بعد سقوط النظام الملكي عام ١٩٥٨ من قبل عبد الكريم قاسم. ويعد أكبر منحوتة صنعت في العراق منذ ٢٥٠٠ عاماً .



نصب الحرية في ساحة التحرير

(١) نصب الحرية رائعة الفنان العراقي جواد سليم . يمثل قصة تطلع الإنسان العراقي إلى الحرية والتحرر من الظلم والقمع والاستبداد. تم إنجازه عام ١٩٦١ ، وتم صب تماثيله في إيطاليا. يبلغ طول النصب ٥٠ مترا وارتفاعه ١٥ متراً.
ولد سليم عام ١٩٢٠ في أنقرة ودرس النحت في لندن وروما وباريس. توفي عام ١٩٦١ .

بجوار ساحة التحرير تمتد عربات كثيرة تبيع كل شيء للأكل أو شراء الحاجيات والبضائع.



وخلف النصب تقع حديقة الأمة ، وهي حديقة جميلة ، و(الأمة) مشتقة من كلمة (أم).

والأمة لفظة مؤنث في اللغة العربية. وغالبا ما ينادي العراقيون المرأة باسم ابنها الأكبر فيقال (أم فلان). إذن وبحسب العادة العراقية أكون أنا (أم ساندر).



رأيت مجموعة من رجال الشرطة في ساحة التحرير. وكما فعلت في برشلونة ، هنا أيضاً طلبت أن التقط صورة معهم ، فوافقوا .

بعد زيارة ساحة التحرير، وكما فعلت جدتي من قبل، سنتناول القهوة في فندق بغداد .



في فندق بغداد

في فندق بغداد وجدنا معرضاً بمناسبة اختيار بغداد عاصمة الثقافة العربية عام ٢٠١٣ .

استقبلتنا إدارة الفندق بحفاوة . وقامت إنعام بشرح خلفية زيارتنا لبغداد ثم للفندق.



بعد تناول القهوة ، استمعنا في قاعة المؤتمرات في الفندق إلى حوار بين المشاركين حول المناسبة الفنية، حسب ما ترجمت لنا جنان.



في مدخل القاعة كان هناك معرض لصور بديعة تمثل جوانب من حياة المجتمع العراقي.







ثم بدأت إحدى الفرق العراقية بالغناء. وعندما غنت أغنية عن بغداد ، تأثرت إنعام كثيراً. لم تتحدث إنعام عن مضمون الأغنية ، لكن يبدو أنها من النوع الذي تشعر به وليس أن تشرحه.

في مستشفى الراهبات

بعد مغادرتنا لفندق بغداد ، عدنا إلى المكان الذي بدأت إنكيبورغ حياتها فيه: مستشفى الراهبات (القديس رافائيل).



تأسس مستشفى القديس رافائيل عام ١٨٨٢

تم استقبالنا في المبنى الجديد للمستشفى (القديس رافائيل). تم إنشاء هذا المبنى مقابل المبنى القديم. إنه بناء حديث يستقبل جميع المواطنين بغض النظر عن معتقده الديني.

استقبلنا مدير المستشفى بالترحاب ، اسمه الدكتور منصور ساوا الذي أخبرنا بأن المبنى القديم ما زال يؤدي دوره ، لكن ليس كمستشفى بل (دار للأيتام) و (روضة للأطفال) و (مدرسة ابتدائية) و (دار للمسنين). وكلها تدار من قبل الراهبات وكما في الماضي وكل وقت.



تعرفنا بالأخت الراهبة (ماريان بيير) التي رفضت التقاط صورة لها لأسباب أمنية. ذكرت الأخت ماريان بأنها بحثت في أرشيف المستشفى في سجلات اليوم الذي ولدت فيه إنكيبورغ. فوجدت أن الأخت (أندريا) كانت موجودة في ذلك اليوم. وأخبرتنا بأنها عادت إلى بلدها فرنسا قبل عامين.





الأخت الراهبة أندريا تحمل إنكيبورغ

بعد ذلك اجتزنا الشارع لزيارة المبنى القديم لسانت رافائيل. هنا تعرفنا إلى وظائف جديدة لهذا المبنى التاريخي. إذ تقدم فيه الدروس لمختلف فئات الأطفال. إذ يدرس الأطفال اللغات العربية والإنكليزية والفرنسية. كما يتعلمون كيفية المحافظة على نظافة محيطهم ، واحترام الآخر.





وقيل لنا أن الراهبات يسعين من خلال هذا الأسلوب إلى (بناء) العراق الجديد. كانت أرجاء المدرسة حقاً نظيفة جداً حتى أنني لم أجد مثلها في شوارع بغداد.



الفناء الداخلي مع حديقة بديعة

وفي أحد ساحات اللعب كان هناك صف يتدربون على رياضة الجمناستك. كان الأطفال يتحدثون بكلمات إنكليزية مثل Circle دائرة ، و Square أي مربع ، مع بعضهم البعض، ويرسمون أشكالها ، ثم يركضون بسرعة. شاركت أنا وإنعام مع الأطفال في لعبهم.



وكان باستطاعتنا دخول الصفوف ، وأعتقد أن الأطفال كانوا ينظرون لزيارتنا بسخرية.
كانت إنعام تجد أنه من الجميل أن تجلس مرة أخرى في رحلات الدراسة والصف.



ومنذ عام ١٩٣٢ تم إنشاء كنيسة صغيرة جميلة .



إن الجولة في مبنى المستشفى القديم تعطي انطباعاً عميقاً بالنشاطات الحالية الراقية.

أمام بطلة ألف ليلة وليلة

بعد خروجنا من مستشفى الراهبات تجولنا في شارع أبو نؤاس بجانب نهر دجلة، ثم وصلنا إلى تمثال (شهرزاد وشهريار).[1] إن شهرزاد هي المرأة التي تروي الحكايات والأساطير التي تضمنها كتاب (ألف ليلة وليلة). عندما كنت طفلة، كنت أعشق حكايات ألف ليلة ، وفي أحد الليالي كاد يغشى عليّ.

(١) تمثال شهرزاد وشهريار صنعه النحات العراقي الشهير محمد غني حكمت.

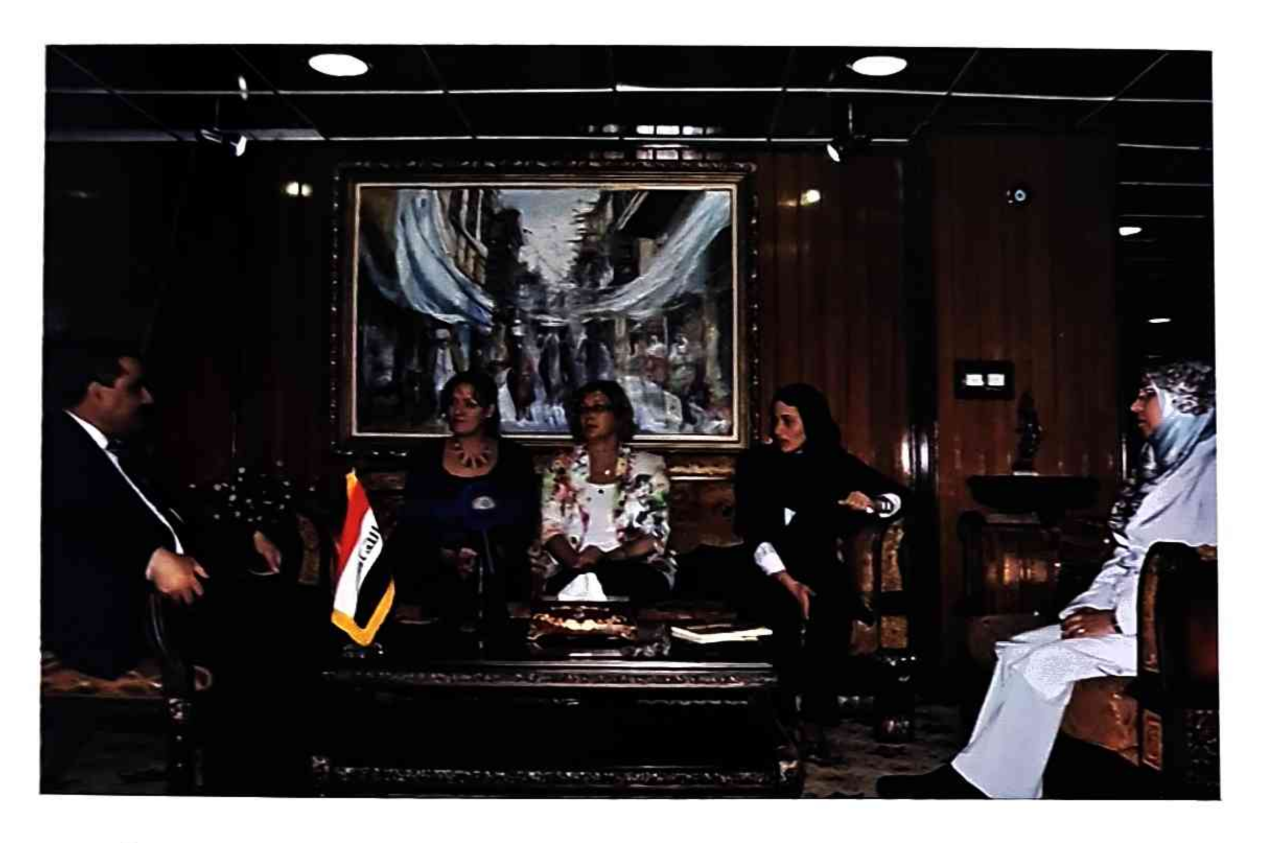




بجوار ضفة النهر، كانت هناك أعمال بناء ، علمت أنها ستكون مدينة ألعاب ومطعماً جديداً، لكن يبدو العمل مستمراً بجد .



قبل الغداء سنتوجه إلى مكتب السيد المحافظ في مبنى المحافظة. قبل الوصول للمكتب كنا نتوقف عند نقاط السيطرة. قبل الوصول شاهدنا المبنى الجديد لمحافظة بغداد الذي سينتهي العمل به عن قريب. يبدو المبنى جميلاً ومهيباً. في النهاية دخلنا المكتب الذي يبدو رائعاً وأنيقاً. دخلنا صالة استقبال الضيوف والوفود الأجنبية. إنه مكتب أتمنى أن يكون لدي مثله. جلسنا ونحن متعبين، لكن المكان يشعرنا بالراحة والأمن.



في هذا المكان تعرفنا على الآنسة (آية) خطيبة محمد . إنها تبدو رائعة (من أذن إلى أخرى)، وللأسف لم يكن هناك متسع من الوقت لتجاذب الحديث معها. تناولنا الغداء مع السيد المحافظ ، وكان لذيذاً ، يتضمن الرز واللحم (القوزي) ، مرق السبانخ ، وفواكه.



قبل مغادرتنا المبنى سألت محمداً إذا كانت هناك إمكانية في الحصول على العلم العراقي وعلم محافظة بغداد. لقد رأيت هذين العلمين في الدوائر التي زرناها، وأرغب أن أقتني أحدها في منزلي. صاحت بي إنكيبورغ وإنعام: كارين! لا يمكنك ذلك. لكن محمد سيرتب هذا الأمر.

في الكرادة الشرقية



غادرنا ديوان محافظة بغداد وتوجهنا إلى شارع الكرادة داخل . كانت هناك الكثير من محلات الصياغة ، وقد جلبت نظري ، يا لها من حلي بديعة. شاهدت في إحدى فترينات المحلات سلسلة معصم ، رغبت كثيراً بشرائها، لكن للأسف كان سعرها غالياً ، فاكتفيت بالنظر إليها .

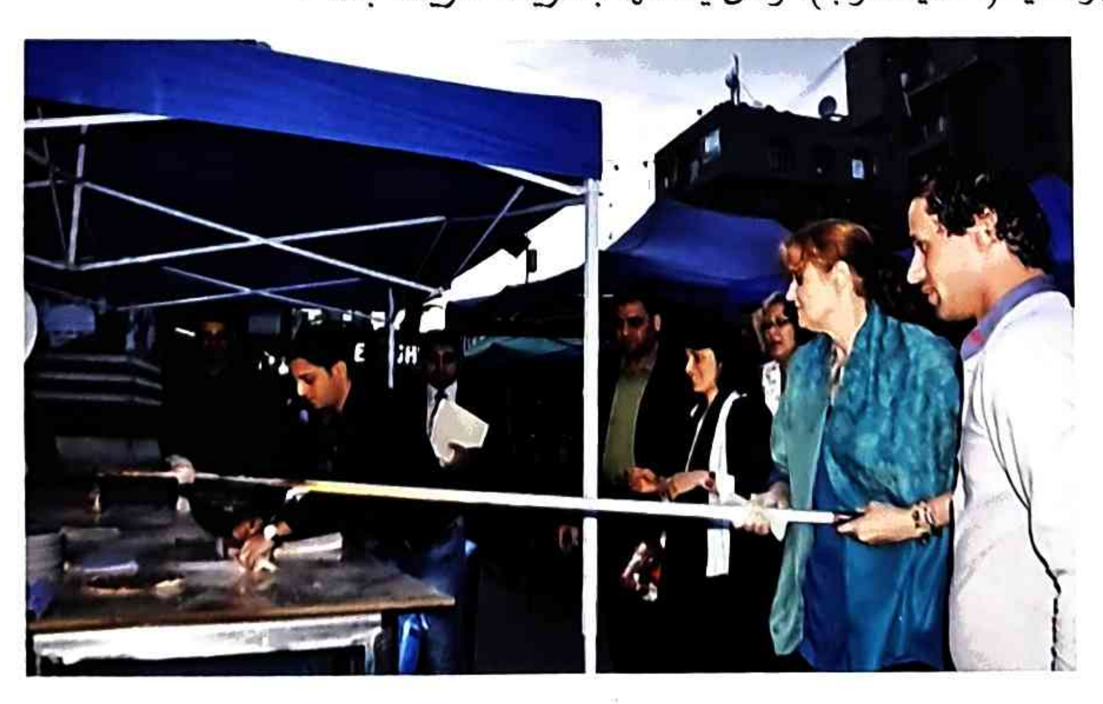


كما كانت في الشارع العديد من البسطات التي تبيع كل شيء تقريباً. أرادت إنكيبورغ قضاء وقت أطول فيها لشراء قمصان رجالية. وكان ذلك يتطلب البحث كثيراً بين المعروضات. اعتقد عامر أن إنكيبورغ تبحث عن قمصان عادية ، ولم يفهم لماذا تصر إنكيبورغ على الشراء من هنا، لكنها كانت تبحث عن بضاعة رخيصة. لكن أدرك فيما بعد أن إنكيبورغ تبحث عن ملابس رجالية منزلية شرقية. وأخيراً وجدتها .



كانت إنعام تتولى مفاصلة البائع على السعر لغرض عقد صفقة جيدة لصالح إنكيبورغ.

إلى جانب ذلك هناك بيتزا عراقية (لحم بعجين) تباع في الشارع . أراد الشباب شراءها لأنهم لم يأكلوا معنا . ولو أخبرونا بذلك من قبل لما تأخرنا كثيراً في التجول في الشارع. بدت إنعام وإنكيبورغ مشغولتين بخبز البيتزا العراقية ، فيما ينادي عامر (يالله ، يالله) ليستعجلنا في العودة . وسرعان ما تعلم أن يقول «استعجلوا ، استعجلوا» ولكن بالهولندية (شخيت أوب). وكان ينطقها بطريقة طريفة جداً .



بعد ذلك اصطحبنا الشباب إلى تناول الأيس كريم في أشهر محل في العراق (الفقمة). كان بإمكاننا الذهاب إلى غرفة مدير المحل. وهناك وزعنا كتاب الجدة (يوميات بغداد) ، وبالطبع كان لابد من إمضائنا عليه. أقولها بلا مبالغة إنه أفضل صالون مثلجات في العراق، وكان ما يقدمه لذيذاً جداً!



في نهاية هذا اليوم الطويل والحافل بالنشاطات والزيارات، توقفنا وترجلنا ثم قمنا بالمشي في الحي الذي يقع فيه مسكن المحافظ. إنه حي شعبي جداً (الشالجية). توجهنا إلى دكان الخبز والمعجنات ، توجهت أنا وإنكيبورغ إلى شباك الرجال. وهذا ما لم نعتد عليه في هولندا. إذ لا يوجد شباك للرجال وآخر للنساء. انتظرنا كثيراً ثم اشترينا عدة أنواع من الكعك العراقي اللذيذ. كما شاهدنا الخبز الذي نأكله كل يوم صباحاً.



ثم توقفنا عند بائع الفواكه والخضروات لشراء (رقيّ) حيث أعجبنا منظره ثم طعمه.
بعد ذلك توجهنا مشياً إلى المنزل. لقد كان يوماً جميلاً .





الفصل الثامن

الأربعاء ١٤ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١٢

كان آخر يوم لنا في بغداد . تم تحضير الحقائب منذ البارحة ، ولذلك لم يكن هناك الكثير مما نفعله. كانت مشاعر مختلطة: سعادة بالعودة إلى منزلنا ، حزن على فراقنا للأصدقاء الذين اكتسبناهم هنا في بغداد وسنتركهم. ستمكث إنعام فترة أخرى في العراق، لأنها ستزور عائلتها في النجف الأشرف. لقد شعرت بالأسى أن لا نكمل السفر معاً نحن الثلاثة، لكن لإنعام أسباب عائلية تستدعي ذهابها إلى النجف الأشرف.

كان هذا اليوم آخر يوم نتناول فيه الفطور نحن الخمسة، التقطنا عدة صور ، كما تم جلب الأعلام الصغيرة التي طلبتها . كانت إنعام وإنكيبورغ سعيدتين لأن طلبي كان عادياً .



بعد ذلك بدأنا بجولة لالتقاط صور جديدة في المنزل الذي ضمنا لمدة أسبوع. قبل أن نخرج من المنزل قامت إنعام بإجراء مقابلة تلفزيونية مع السيد المحافظ لتضاف إلى الوثائق الخاصة برحلتنا إلى بغداد.



ثم بدأ أول وداع مع السيد المحافظ لأنه سيذهب مبكراً إلى عمله، ولا يوجد الآن سوى أن نودعه في المرة الأخيرة التي نراه فيها. كان الوداع مختلفاً عما اعتدنا عليه من توديع الأهل والأصدقاء في هولندا من خلال تعانق المودعين وتبادل القبلات على الوجنتين، لكن هنا تم الاكتفاء بالعبارات الحميمة.



زيارة العتبة الكاظمية

سنقوم اليوم بزيارة الكاظمية، وهي مدينة شمال بغداد تضم مسجداً ذي قباب ومنائر ذهبية، حيث دفن فيه الإمامان موسى بن جعفر الكاظم (ع) ومحمد الجواد التقي. كما سنقوم بجولة في السوق المجاورة للمسجد. ترجلنا من السيارات لنسير في شارع عريض (باب المراد) تحيط به المحلات التجارية على جانبيه. وتمنع السيارات من المرور فيه. لكن توجد سيارات كهربائية لنقل الزوار إلى باب العتبة.

كان الشارع اليوم مزدحماً لكن شبابنا المرافقين كانوا مشغولين بحمايتنا، إضافة إلى فريق التصوير المرافق لنا. من بعيد شاهدت القباب الذهبية التي تعكس النور بشكل رائع. لقد كان منظراً مؤثراً جداً.



عند مدخل المسجد أعطونا عباءات نرتديها لتغطي أجسامنا ، وبدونها لا يمكننا دخول المسجد .

لم نكن نعرف كيفية ارتدائها لكن إنعام وزوجة السيد المحافظ ساعدتانا في طريقة لبسها . بالنسبة لي لم تعجبني كثيراً لأنها كانت تنقص قطعة قماش . إذن كان كل شيء جيداً ، أصبح بإمكاننا خلع أحذيتنا ودخول المسجد . لحسن الحظ سمح لفريق التصوير بالدخول معنا، وهذا أمر استثنائي لأنه عادة لا يسمح بذلك إلا للشخصيات الهامة.

عندما دخلنا باحة المسجد كانت واسعة ورائعة تخلب الأنظار. كانت الجدران مزينة بالزخارف البديعة والخطوط العربية الجميلة. كانت أعمالاً فوق الوصف بدقتها وتناسقها وألوانها . إن المسجد كله عبارة عن قطعة فنية فريدة. انتبهت لوجود أعلام سوداء مرفوعة في كل مكان. كذلك كانت موجودة في المدينة والشوارع. أوضح محمد بأن رفع الأعلام السوداء هو علامة الحزن بمناسبة شهادة الإمام الحسين (ع) في مدينة كربلاء. إن شهر محرم هو أول شهور السنة الإسلامية (الهجرية). وتسمى إحياء هذه المناسبة بعاشوراء.

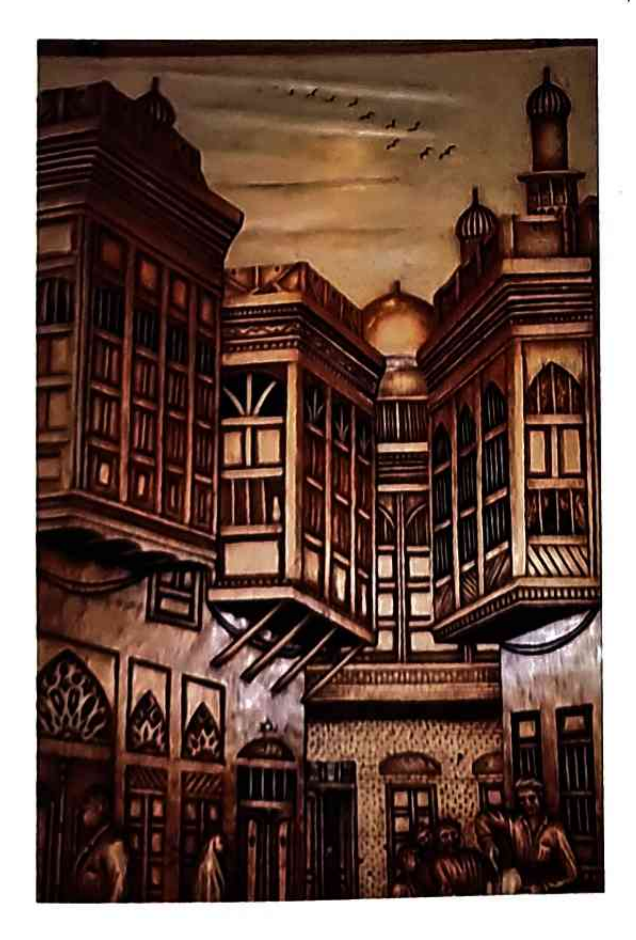


دخلنا الروضة الشريفة، وكان بإمكاننا زيارة الضريح المقدس، حيث دخلنا من باب خاص بالنساء. لقد استغربت المنظر لأنني لأول مرة أزور ضريحاً إسلامياً ، وأشاهد النساء يتدافعن مع بعضهن من أجل الوصول إلى الشباك ولمسه وتقبيله. كما شاهدت بعضهن يربطن قطع قماش خضراء بالشباك. هذه القطع الخضراء كانت تؤخذ للتبرك بها وانتظار استجابة دعاء من ترتديها . لقد وجدت أنه من الخطر أن أتزاحم مع هذه الجموع من النساء. كان هناك حاجز يمنع اختلاط الرجال بالنساء وأن لا يدور الزائر حول الضريح. لقد شعرت في لحظة أن هناك من يدفعني نحو الشباك. كانت إنعام وعقيلة المحافظ تحذرانا بالانتباه إلى حقائبنا . لقد وجدت في تقبل ذلك صعوبة لأننا في مكان مقدس ولا يجب أن نتوقع أن نتعرض للسرقة.

لحسن الحظ توقفت عقيلة السيد المحافظ عن المشي وبدأت بالصلاة، فأتاح لنا ذلك التفكير بهذا التصرف من قبل الزائرين. خرجنا من الروضة المقدسة وأنا أنظر للنساء يتدافعن وبعضهن يصطحبن أطفالهن معهن. هذا ما لا يمكن أن أفهمه.



في المسجد كان هناك ركن للأعمال الخشبية حيث يقوم الفنان إبراهيم النقاش بتدريب الشباب على كيفية النحت بالخشب. قام باصطحابنا في مشغله لنشاهد أعماله ومنحوتاته. هنا كان بودي أن أبقى أكثر ، إن ما يقوم به إبراهيم جميل جداً. إن جميع أعماله عبارة عن قطعة خشب يقوم بنحتها بفن دقيق ورائع، فيحول الخشب إلى وجه من وجوه مدينة بغداد ، حاراتها وأزقتها وشخصياتها . لقد تربى إبراهيم في بيت تعود على الفن ونحت الأشياء الدقيقة. قمت بشراء قطعة صغيرة : إنها أسد بابل ، كذكرى لهذا المشغل الرائع وهذا الفنان الماهر.





مشغل الفنان إبراهيم النقاش



الأسد الخشبي الصغير يقف مع العلم العراقي

وعلم المحافظة

وصورة والدي يرتدي الملابس العراقية

بعد زيارة معرض النحت على الخشب، أخذ عامر يستعجلنا (يللا ، يللا) . غادرنا المسجد ثم توجهنا إلى السوق القريب.



بجوار المسجد كانت الخراف في الشارع

في سوق الكاظمية

هذا هو السوق الذي وصفته جدتي في مذكراتها (يوميات بغداد) لقد استمتعت بأجوائه وألوانه ، لكن للأسف لم يكن هناك متسع من الوقت للتجول فيه.

ذهبنا للبحث عن التوابل الخاصة بأكلة (البرياني) التي أريد أن أطبخها في بيتي.



وحالما وجدناها ، كان لابد من العودة إلى المنزل لتناول الغداء ، والتقاط بعض الصور، وحزم حقائبنا ، وانتهاء آخر جولة لنا مع مرافقينا : أبو جعفر ومحمد .

بعد وداع عقيلة السيد المحافظ ، لكن للأسف لم يكن باستطاعتها مرافقتنا إلى المطار، لأنها تعاني من صعوبة في التنفس. لقد كان علينا الذهاب إلى المطار ، لكن تملكتني رغبة عارمة في البقاء في بغداد ولو لبرهة قصيرة. كما قدمنا شكرنا العميق للشباب الذين رافقونا ، واعتنوا بنا، وعاملونا بأخلاق عالية. قامت إنعام بترجمة عباراتنا ، والتي أعتقد أن الشباب أدركوا تقييمنا لهم بشكل حقيقي.



سأفتقد كل واحد منهم... لن يكون غدا أي فطور مع السيد المحافظ وعقيلته... ولا عبارة (صباح الخير) نتبادلها مع الشباب... لن تكون هناك دروس لغة مع محمد... ولن تكون هناك نكات لطيفة مع أبو جعفر. لقد تعودت عليهم وكأنني في بيتي.



السيدة إنعام تترجم حديثنا وعبارات الوداع للشباب

في الطريق إلى المطار ، عبرنا نقاط السيطرة، لكن تم إيقافنا في واحدة منها ، وأخبرونا بأننا حاولنا التقاط صور من نافذة السيارة وهو غير مسموح به. أوضحنا لهم أنه كان هناك كلب تفتيش وددنا بالتقاط صورة له، وليس أي شيء آخر. تفهموا أننا غرباء، وانتهى الأمر.

قدم أبو جعفر اعتذاره لأنه ولضيق الوقت لم يتمكن من شراء هدايا لنا . ولكن أوضحنا له بأن صداقته كانت أفضل هدية تقدم لنا .

في المطار تم تفتيش كل شيء ولعدة مرات قبل أن يسمح لنا بالدخول. قاد أبو جعفر السيارة وأوصلنا إلى باب الصالة، لكن للأسف لم يكن بإمكانه العودة إلينا لأنه سيقود السيارة باتجاه مواقف السيارات. وكان بودي أن أودعه وأقول له أن يعتني بنفسه.

تم تفتيش الحقائب في أجهزة فحص الحقائب، وتفحصوا كل شيء قد يبدو غريباً . ثم دققوا جوازات السفر. نعم سيدي، نحن أيضا بغداديات! هل تفهم ذلك.



هنا يمكننا الارتخاء في صالة كبار الشخصيات VIP ، كما نجد معاملة خاصة. نظرات غريبة من الناس، وكأننا لا نبدو من زبائن الصالة. بقي عامر ومحمد معنا في صالة VIP ولحسن الحظ كان بإمكاننا تبادل الأحاديث حول الأسبوع الذي أمضيناه في بغداد .



بانتظار الوداع

لقد كانت أياماً استثنائية قضيناها مع بعضنا . كان عامر يجد كل شيء رائعاً. في حين ، برأي محمد، كان اليوم الذي قضيناه في آثار بابل يوماً استثنائياً. لقد كنا نتحدث حول أسبوع جميل. دعانا محمد إلى حفل زواجه من آية ، سيبدو الحفل استثنائياً لو حضرناه، أجبناه: إن شاء الله، إن شاء الله (كما يقول العراقيون).

ثم جاءت اللحظات التي يجب أن نودع بعضنا البعض فيها ، ثم رافقنا الشباب مرة أخيرة باتجاه البوابة. هنا تواعدنا لآخر مرة لأنه ليس باستطاعتهم مرافقتنا إلى باب الطائرة. وضعنا حقائبنا اليدوية في جهاز تفتيش الحقائب ، وعبرنا بوابة التفتيش الألكترونية.



في طريقنا من الصالة إلى باب الطائرة

سمح لإنعام بمرافقتنا إلى باب الطائرة. كان الوداع معها إنفعالياً إلى درجة مؤثرة: عناق، قبل، دموع. كنا نحلم أن نعود معاً ولا نتعرض لهذا الموقف المحزن.



هنا كانت آخر كلمات سمعناها من المرافقين لنا ، من مصورين ، ومشرفين على إجراءات السفر. بقي الركاب المصطفين خلفنا يتذمرون لتأخيرهم أمام باب الطائرة.



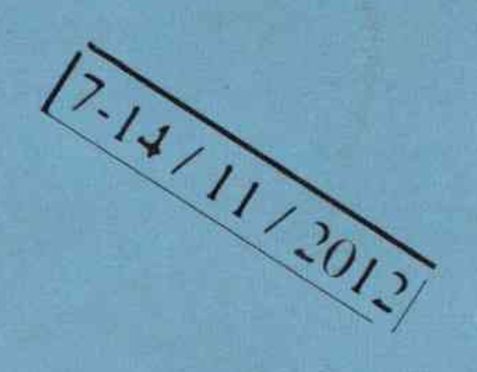
في الطائرة رأينا أحد المضيفات التي رافقتنا في رحلة القدوم إلى بغداد. كانت تنظر إلينا باستغراب لوداعنا ثم قالت: يبدو أنكم أناس مشهورون في العراق. كانت كلمة (مشهورين) ترن في أذني ، وقد أعجبتني عندما تذكرت أن (خمس عشرة دقيقة من الشهرة) استغرقت أسبوعاً في بغداد. في ذلك الأسبوع تعرفنا على أناس مميزين ، حتى أننا ودعناهم كأهل وأصدقاء حميمين.

ركبنا الطائرة، تحدثنا مع المضيفات حول زيارتنا لبغداد. وعندما أقلعت الطائرة ، من مدرج مطار بغداد متوجهة إلى فيينا، ترقرقت دموعنا ونحن نتذكر الدكتور صلاح وعقيلته، والشباب المحبوبين : سأفتقدكم دائماً.

عندما وصلنا إلى أمستردام انتهت مغامرتنا المميزة، وعدنا إلى حياتنا اليومية العادية. أقولها بصراحة: لقد أغنت رحلة بغداد حياتي كثيراً ، من أول قدم وضعناه بعد خمسين عاماً خطوناها على أرض بغداد عندما كنا أطفالاً صغاراً. لقد شعرت أنني في بيتي ، هناك بدأت حياتي.



Terug Naar Bagdad





Dagboek van een bezoek aan Geboorteplaats

▶ Door : Karen Swarts

▶▶ Vertaling en revisie : dr. Salah Abdel-Razaq



التصميم والطباعة

شركة الأنس للطباعة والنشر